بينات

إشراق

على كتاب

البراهين العقلية على وحدانية الرب ووجوه كماله

للعلامة الشيخ

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

حقق المتن وقدم له وعلق الحاشية

د. مطلق بن جاسر بن مطلق الجاسر

الطبعة الأولى

إشْرَاق

على كتاب البراهين العقلية

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٤ هـ - ٢٠٢٣م

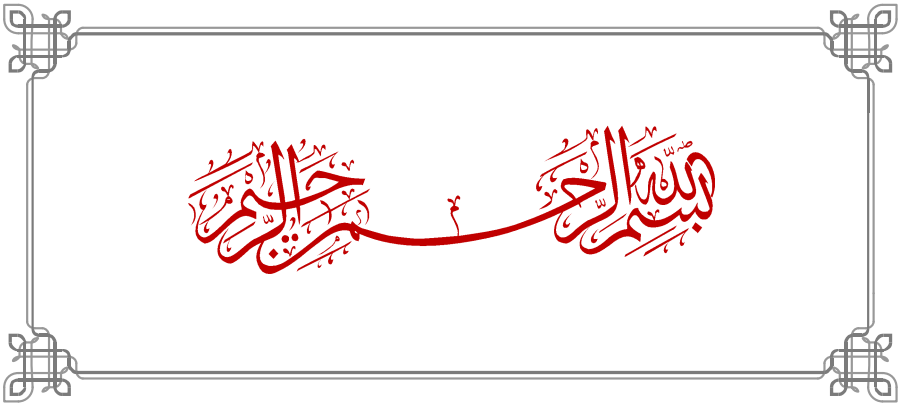
بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعـد:

فإن الله ﷻ خَلَق خَلْقه ولم يترْكهم هَمَلًا، بل أقام عليهم الحُجّة وأوضح لهم المحجّة، وذلك بإرسال الرُّسل الذين خُتموا بمحمد ﷺ، وإنزال الكُتب التي خُتمت بالقرآن العظيم.

وإن أعظم ما جاء به القرآنُ والسنة توحيد الله ﷻ، الذي لا يطيب عيش المرء في الدنيا ولا في الآخرة إلا به، ولا شكَّ أن العلمَ يشرُف بِشَرَفِ مُتعلَّقه، ومن هنا فإن العلم المتعلّق بتوحيد الله ﷻ في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات هو أشرف العلوم وأجلّها.

وقد وفّق الله تعالى للعناية برسالةٍ من رسائل هذا العلم الشريف، وهي رسالة: «**البراهين العقلية على وحدانية الربِّ ووجوه كماله**» للشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السِّعدي رحمه الله.

وهي إحدىٰ إسهامات الشيخ المباركة في الدفاع عن الدين، وإبطال أصول الملحدين، والردِّ علىٰ منكري الربوبية والألوهية، وهكذا يجب أن يكون العالِم الرباني، فإن الشيخ رحمه الله قد عاش في عصرٍ انتشرت فيه انحرافات كثيرة ودعوات باطلة، فقد نشطت فيه الدعوة إلىٰ الإلحاد والشيوعية المادية، ووصلت إلىٰ عدد من بُلدان المسلمين عبر بوابة القومية وغيرها، وتأثر بهذه الدعوات مَن تأثّر من المُسلمين.

فانبرىٰ علماء الأُمة ليكونوا سدودًا منيعة وحصونًا حصينة لصدِّ عادية تلك الأفكار الخبيثة، تأليفًا وتدريسًا وتوجيهًا وحوارًا ومناظرة، ذبًّا عن دين الله، ونُصرةً لسُنّة رسول الله ﷺ، حتىٰ ذبلت هذه الشبهات وماتت أو كادت.

ثم جاء في هذه السنوات المتأخرة مَن أوقدَ للحرب نارها، وأَضرَمَ فيها سُعارها، ونفخ هواءَهُ المُنتن في جسدها الخبيث، حتىٰ قامت علىٰ أقدامها تُصارع الناس وتحاول صدّهم عن دينهم.

ولابد هنا من مواجهة ذلك **بالتخلية والتحلية**، تخلية القلب من أوضار الشبهات بنقضها من أصولها وبيان تهافتها، ثم تحلية القلب بالتوحيد، بتثبيت دلائله ومسائله.

وقد يسّر الله تعالىٰ لعبده الفقير تأليفَ كتاب يُعنىٰ بالمعالجة التأصيلية للشبهات الفكرية وهو **كتاب «ترياق: نحو معالجةٍ تأصيليةٍ للشبهات الفكرية»** وأرجو أن يكون خطوة في طريق التخلية، وأما التحلية بتثبيت دلائل ومسائل الشهادتين ففكّرتُ أن تكون مساهمتي المتواضعة فيها من خلال كتابين:

إِشْراق ومِصْدَاق.

أما **كتاب مِصْداق** فسيكون في تثبيت دلائل صحة نبوة النبي محمد ﷺ، أَسأل الله الإعانة على إتمامه.

وأما **كتاب إشراق** فجعلتُه عنايةً برسالة: «**البراهين العقلية على وحدانية الربِّ ووجوه كماله**» للشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السِّعدي رحمه الله، فاعتنيتُ بها تحقيقًا وتحشيةً وتقديمًا، وذلك بتحقيقها على أصلها الخطّي، ثم وضعتُ حاشيةً عليها تُتمّم مقاصدها وتوضّح معانيها، ثم جعلتُ بين يديها أربع مقدمات، وهي:

١ ـ ترجمة المؤلف رحمه الله.

٢ ـ بيان جهود علماء الأمة المعاصرين في مواجهة الإلحاد والانحرافات الفكرية، الشيخ عبد الرحمن السعدي نموذجًا.

٣ ـ الاستدلال العقلي على مسائل التوحيد وعلاقته بعلم الكلام.

٤ ـ دراسة مختصرة حول رسالة «البراهين العقلية» وعملي فيها.

وما كان لهذا العمل أن يتم لولا توفيق رب العالمين وتيسيره، ثم معونة أُسرتي وإخواني وأصحابي، فلا يسعني هنا إلا أن أتوجه بالشكر الجزيل والثناء العاطر الجميل لكل من ساهم في هذا العمل وأخصّ أسرتي وإخواني وأصحابي، وكذلك كل من شارك فيه برأي أو مشورة أو مراجعة أو إفادة، وأسأل

الله لي ولهم الحُسنىٰ وزيادة، كما أسأل المولىٰ ﷻ أن يبارك في القول والعمل، وأن يجنبنا الخطأ والزلل.

وهذا جهد المُقلّ وإسهامُ الضعيف، فإن يكُ صوابًا فمن الله، وإن يكن خطأ فمنّي ومن الشيطان، والله ورسوله منه بريئان.

وكتبه فقير عفو ربه

أبو عبد الله

مطلق بن جاسر بن مطلق الجاسر

الكويت ـ ضاحية الصدّيق

عصر يوم الجمعة ٢٥ شعبان ١٤٤٤ هـ

الموافق ١٧/٣/٢٠٢٣ م

المقدمة الأولى

ترجمة المؤلف الشيخ عبد الرحمن السعدي ﵀

اسمه ونسبه ومولده:

هو العلامة الشيخ أبو عبد الله عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي التميمي النجدي الحنبلي، ويرجع نسب أسرته إلى آل مفيد من بني العنبر من بني عمرو، من قبيلة تميم.

ولد الشيخ ﵀ في مدينة عنيزة بالقصيم في الثاني عشر من محرم سنة ١٣٠٧ هـ.

نشأته:

نشأ يتيم الأبوين؛ إذ توفيت والدته سنة ١٣١٠ هـ وعمره أربع سنين، وتوفي والده وعمره سبع سنين سنة ١٣١٣ هـ، فكفلته زوجة والده ﵀ وأحبته أكثر من أولادها، ورعته حتى شب، ثم انتقل إلى بيت أخيه الأكبر حمد فقام برعايته وتربيته، وكان حمد رجلا صالحًا.

وقد كان والد الشيخ عبد الرحمن من العلماء، وكان إمامًا لمسجد المسوكف بعنيزة، وكان قد وصى ابنه حمدًا برعاية أخيه الأصغر عبد الرحمن.

وقد كانت نشأته مثارًا للإعجاب والدهشة ولفت الأنظار؛ لذكائه ورغبته الشديدة في طلب العلم، كما كان محافظًا على الصلوات الخمس مع الجماعة.

صفاته الخَلْقية:

كان قصير القامة ، ممتلئ الجسم ، أبيض اللون مشربا بالحمرة ، مدور الوجه طلقه ، كثيف اللحية البيضاء ، وقد ابيضت مع رأسه وهو صغير .

كان شعره كثيفا وكانت الكثافة في شعر لحيته أقرب من رأسه وهو شاب وكذلك وهو كبير . يتلألأ وجهه كأنه فضة ، وجهه حسن ، عليه نور في غاية الحسن وصفاوة اللون ، نيّر لا يرى إلا مبتسما أو بادية أسارير وجهه .

طلبه للعلم:

حفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب قبل تمام الثانية عشرة من عمره في مدرسة الشيخ سليمان بن دامغ ، واهتم بطلب العلم على علماء بلده ، وعلماء البلاد المجاورة لها ، كما كان يستفيد من العلماء الذين يفدون ، ومن يردون إلى بلده ، كما جعل أوقاته كلها في تحصيله للعلم ، حفظا وفهما ودراسة ومراجعة واستذكارًا ، حتى أدرك في صباه من العلم ما لا يدركه غيره في زمن طويل وقد كان لا يصرفه عن حلق الذكر ومجالس الدرس أي صارف ، ولا يرده عن الدروس أي راد ، إلا ما يكون في حال الضرورة ، كما تعلم القراءة والكتابة في سن مبكرة ، ثم انكب على العلم وانقطع له ، ولم يشتغل بأي من الأعمال التجارية حرصا على طلب العلم .

ولا أدل على حرصه على طلب العلم من المؤلفات التي أورثها وتداولها طلبة العلم من بعده .

وكان يميل كثيرا إلى كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ولهذا

جاء من تأليفه في التفسير والحديث وغيره ورد لا ينضب من العلم، ورفد لا يشح على متتبع لمؤلفاته.

أبرز مشايخه:

درس الشيخ رحمه الله على عدد من المشايخ، فأخذ عنهم العلوم والفنون المتنوعة، ومنهم:

١ ـ الشيخ محمد بن عبد الله بن سليم (ت: ١٣٢٣ هـ)

٢ ـ الشيخ إبراهيم بن حمد الجاسر (ت: ١٣٤٢هـ) أخذ عنه الحديث عندما عين قاضيًا في عنيزة وجلس للتدريس فيها.

٣ ـ الشيخ محمد بن عبد الكريم الشبل (ت: ١٣٤٣هـ) أخذ عنه الفقه والنحو.

٤ ـ الشيخ صالح بن عثمان القاضي (ت: ١٣٥١هـ) قاضي عنيزة أخذ عنه التوحيد والتفسير والفقه وأصوله والنحو، وهو أكثر من قرأ عليه ولازمه أكثر من عشرين سنة.

٥ ـ الشيخ إبراهيم بن صالح بن عيسى (ت: ١٣٤٣هـ)

٦ ـ الشيخ علي بن ناصر أبو وادي (ت: ١٣٦١هـ) قرأ عليه في الحديث والأمهات الست وأجازه في ذلك.

٧ ـ الشيخ محمد أمين فال الخير بن عبدي الشنقيطي (ت: ١٣٥١هـ) نزيل الحجاز قديمًا، ثم رحل إلى بلدة الزبير[١]، قرأ عليه التفسير والحديث ومصطلح

(١) وهو من العلماء الذين كان لهم أثر في الحركة العلمية في الكويت والزبير والقصيم وغيرها=

الحديث أثناء وجوده بمدينة عنيزة أخذ عنه سندا بالرواية.

٨ ـ الشيخ محمد بن الشيخ عبد العزيز بن محمد بن عبد الله المانع (ت: ١٣٨٥هـ) مستشار المعارف بالمملكة العربية السعودية، وقد قرأ عليه في عنيزة.

أبرز تلامذته:

أما تلاميذه فكثيرون جداً[(١)]، من أشهرهم:

١ ـ الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين (ت: ١٤٢١هـ).

٢ ـ الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن البسام (ت: ١٤٢٣هـ).

٣ ـ الشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل (ت: ١٤٣٢هـ).

٤ ـ الشيخ محمد بن سليمان البسام (ت: ١٤٣١هـ).

وغيرهم كثير.

أهم مؤلفاته:

للشيخ مؤلفات عديدة في مختلف الفنون، منها:

= من البلدان، انظر ترجمته وإسهاماته العلمية في مذكراته، وكتاب: الشيخ محمد أمين الشنقيطي: حياته ومذكراته وعلاقته بملوك وشيوخ الجزيرة العربية لعبد اللطيف الدليشي الخالدي، وتاريخ الكويت السياسي لحسين خلف خزعل (٤/٦٧)، ومن هنا بدأت الكويت لعبد الله الحاتم (ص ٣٣).

(١) أطال في ذكرهم ورتّبهم على حروف المعجم الشيخ عبد الله البسام في علماء نجد (٣/١٩٣ ـ ٢٠٠).

١ ـ تفسير القرآن الكريم المسمى (تيسير الكريم المنان في تفسير القرآن).

٢ ـ تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن.

٣ ـ منهج السالكين وتوضيح الفقه في الدين.

٤ ـ التنبيهات اللطيفة على ما احتوت عليه الواسطية من المباحث المنيفة.

٥ ـ إرشاد أولي الألباب، لمعرفة الفقه بأقرب الطرق وأيسر الأسباب.

٦ ـ بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار.

٧ ـ توضيح الكافية الشافية، وهو شرح على نونية ابن القيم.

٨ ـ الدرة البهية، شرح القصيدة التائية في حل المشكلة القدرية لابن تيمية

٩ ـ رسالة لطيفة جامعة، في أصول الفقه المهمة.

١٠ ـ القواعد والأصول الجامعة، والفروق والتقاسيم البديعة النافعة.

١١ ـ القواعد الحسان لتفسير القرآن

١٢ ـ القول السديد في مقاصد التوحيد.

وغيرها كثير.

مرضه ووفاته:

توفي الشيخ رحمه الله قبيل فجر يوم الخميس الموافق ٢٢ جمادى الآخرة سنة ست وسبعين وثلاثمائة وألف (١٣٧٦ هـ).

من مصادر ترجمة الشيخ:

- روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين، للشيخ محمد بن عثمان القاضي (١/٢١٩)

- علماء نجد خلال ثمانية قرون، للشيخ عبد الله البسام (٣/١٧٧ ـ ٢٢٢).

- مقدمة التعليق وكشف النقاب على نظم قواعد الإعراب، للشيخ محمد بن سليمان البسام.

- مشاهير علماء نجد وغيرهم، للشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ (ص ٣٩٢ ـ ٣٩٧).

- الشيخ عبد الرحمن بن سعدي وجهوده في توضيح العقيدة، رسالة ماجستير، للشيخ الدكتور عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر (ص١٣ ـ ٦١).

المقدمة الثانية

جهود علماء الأمة المعاصرين في مواجهة الإلحاد والانحرافات الفكرية

الشيخ عبد الرحمن السعدي نموذجًا

عن أبي الدرداء ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العلماء ورثةُ الأنبياء، إن الأنبياء لم يورّثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورّثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر»[(١)]

قال الإمام ابن بطال ﷺ: «جاء في كثير من الآثار أن درجات العلماء تتلو درجات الأنبياء، ودرجات أصحابهم، والعلماء ورثة الأنبياء، وإنما ورثوا العلم وبيّنوه للأمة، وذبّوا عنه، وحموه من تحريف الجاهلين وانتحال المبطلين»[(٢)]

لا شك أن وظائف الأنبياء جليلة، ومن أعظمها وأجلّها وظيفة الذود عن حياض شريعة رب العالمين ونصرتها والدفاع عنها، فمن أراد وراثتهم حقًا فعليه أن يسير على دربهم وينتهج نهجهم.

---

(١) رواه أبوداود (٣٦٤١) وابن ماجه (٢٢٣) والدارمي (٣٤٣) وابن حبان (٨٨)، وقد أورد الإمام البخاري لفظه في كتاب العلم من صحيحه ولم يُفصح أنه حديث، وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١/١٦٠): «حسنه حمزة الكناني وضعفه باضطراب في سنده، لكن له شواهد يتقوى بها ولم يفصح المصنف بكونه حديثا فلهذا لا يعد في تعاليقه، لكن إيراده له في الترجمة يشعر بأن له أصلا وشاهده في القرآن قوله تعالى: (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا)».

(٢) شرح صحيح البخارى لابن بطال (١/١٣٣)، وانظر: التوضيح لشرح الجامع الصحيح (٣/٢٥٠).

ولذلك جاء ورثتهم من بعدهم، كلما جدّد أعداءُ الإسلام انحرافاتٍ، جدّد لها هؤلاء العلماء ردوداً جديدةً كذلك، وهم على هذا النهج القويم في كل زمان وكل مكان.

قال الإمام أحمد ﷺ في مقدمة كتابهِ العظيم الرد على الزنادقة والجهمية: «الحمد لله اَلَّذِي جعل في كل زمان فترةٍ من الرسل بقايا من أهل العلم، يدعون مَنْ ضلَّ إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله الموتى، ويُبصّرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيلٍ لإبليس قد أحيوه، وكم من ضالٍ تائهٍ قد هدوه، فما أحسن أثرهم على النَّاس! وما أقبح أثر النَّاس عليهم! ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين[(١)]، الذين عقدوا ألوية البدعة، وأطلقوا عقال الفتنة، فهم مختلفون في الكتابِ، مخالفون للكتاب، مجمعون على مفارقة الكتاب، يقولون على الله وفي الله وفي كتاب الله بغير علم، يتكلَّمون بالمتشابه من الكلام، ويخدعون جهال النَّاس بما يشبّهون عليهم فنعوذ بالله من فتنة المضلّين»[(٢)].

ولا شك أن الله تعالى قد تكفّل بحفظ هذا الدِّين وحفظِ الكتاب الكريم، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، فدينُ الله تعالى باقٍ ما بقي الليل والنهار، ومن أسباب بقائه هذه الثُلّة المباركة من العلماء.

ولن يكون للعلماء هذا الأثر إلا بأمرين:

---

(١) جاء هذا اللفظ في حديث مرفوع إلى النبي ﷺ من حديث ابن عباس ﷺ، رواه الهروي في ذم الكلام (٧٠٤) واختُلف في تصحيحه وتضعيفه.

(٢) الرد على الزنادقة والجهمية، للإمام أحمد بن حنبل، (ص ١٧٠ ـ ١٧٤).

١ ـ العلم الأصيل بالوحيين الكتاب والسنة.

٢ ـ الاطلاع الواسع على واقع الأفكار المعاصرة، لا سيما المنحرفة منها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فمن طلب ذلك وجد في الكتاب والسنة من النصوص القاطعة للعذر في هذه المسائل ما فيه غاية الهدي والبيان والشفاء، وذلك يكون بشيئين:

❊ أحدهما: معرفة معاني الكتاب والسنة.

❊ والثاني: معرفة معاني الألفاظ التي ينطق بها هؤلاء المختلفون، حتى يحسن أن يطبّق بين معاني التنزيل ومعاني أهل الخوض في أصول الدين، فحينئذ يتبين له أن الكتاب حاكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، كما قال تعالى ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]»(١)

ومن هؤلاء العلماء الشيخ عبدالعزيز الرشيد رحمه الله (ت: ١٣٥٧ هـ) وهو علّامة الكويت في زمنه، فقد كانت له جهود عظيمة في الرد على الإلحاد، وقد نوقشت رسالة ماجستير في كلية الشريعة بجامعة الكويت بعنوان: «جهود الشيخ عبدالعزيز الرشيد في التصدّي للإلحاد والرد على شبهات الملحدين» للطالبة سارة خالد الفارس، وقد أحسنت الباحثة في جمع جهود الشيخ في هذا الباب من مظّانها.

ومن تلك الجهود المباركة لعلماء عصرنا ما قام به العلامة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله (ت: ١٤٢٠هـ) من التصدّي للردّ على الأطروحات الإلحادية

(١) درء تعارض العقل والنقل (١/٧٥)، ورسالة بيان خاتم النبيين (ص ٥٩).

لعبد الله بن علي القصيمي (ت: ١٩٩٤م)

فقد قرّظ الشيخ ابن باز ﷺ لكتابٍ اسمه: «تشخيص أخطاء صاحب الأغلال الرئيسية، وبيان ما دلّت عليه من الإلحاد والمذاهب الإباحية» نَشَرَتْه مطبعةُ أنصار السنة المحمدية بمصر في ٥١ صفحة، عام ١٣٦٧هـ الموافق ١٩٤٨م.

ويحتوي الكتاب على قصيدة للشيخ راشد بن صالح بن خنين، وقصيدة للشيخ صالح بن سليمان بن سحمان، وقصيدة طويلة للشيخ صالح بن حسين العلي العراقي ﷺ.

وجاء في تقريظ الشيخ عبد العزيز بن باز ﷺ ما يدلّ على اطلاعه الدقيق على ضلالات القصيمي، حيث قال: «الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده أما بعد، فإني لما قرأت هذه القصيدة السديدة التي أنشأها الفهم الأديب واللوذعي الأريب، الشاب الفاضل راشد بن صالح بن خنين[1] زاده الله علماً وفهما، وجدتها قد وافقت الحق الذي يجب اعتقاده في هذا الباب، وزيفت كثيراً من أضاليل هذا الزائغ المرتاب، فإن هذا الضال القصيمي قد أكثر في كتابه من أنواع الضلال والكفر والإلحاد، ليضل بها الناس عن الحق والهدى ويدعوهم

(١) هو الشيخ راشد بن صالح بن محمد بن خنين من عائذ من قبيلة قحطان، ولد في الدلم عام ١٣٤٤هـ نشأ وتعلم فيها، وتلقى دروسه على عدد من المشايخ كالشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، والشيخ عبد العزيز بن باز، وتخرج في كلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض عام ١٣٧٦هـ، وتوفي في مدينة الرياض يوم الأحد ١٣ جمادى الاخرة ١٤٣٥هـ الموافق ١٣ أبريل ٢٠١٤م عن عمر يناهز ٩٠ عاماً بعد معاناة مع المرض رحمه الله رحمة واسعة.

بها إلىٰ نبذ الدين وسلوك مسلك أعداء الله الكافرين في حب الدنيا وإيثارها علىٰ الآخرة، وطلبها بكل طريق أوصل إليها سواء أباحه الشرع أو حظره.

ومن أكبر الأضاليل والمنكرات التي سطر في كتابه زعمه في صفحة ٣١٥ منه أن الإيمان بالله وقدرته التامة علىٰ كل شيء مشكلة لم تحل، وقوله صفحة ٣٢٦ منه إن البشر عاجزون فيما يبدو لنا حتىٰ اليوم عن أخذه، أي الدين، وفهمه وتصوره علىٰ وجهه النافع المفيد، بل هم إما أن يبقوا غير متدينين أو متدينين تديناً باطلاً، كما أثبت هذا جملة تاريخ الإنسان، ولابد من استثناء فترات أو ومضات قليلة خافتة، إلىٰ أن قال: والدين هو أحد هذه الأمور الجميلة التي عجز الناس عن تصورها تصوراً صحيحاً لأنها جاءت قبل استيفاء استعدادهم الموقوت، فراحوا ضحايا هذا التصور الباطل، إلىٰ أن قال صفحة ٣٢٨ ولكن ثبت أن البشرية عاجزة إلا فيما ندر عن فهمه علىٰ وجهه الصحيح. هذه هي المشكلة التي لم تحل! فهذا الكلام لا يصدر إلا من شخص عدو لله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وكافر بأن القرآن حق ورسالة محمد ﷺ حق، لأن القرآن والسنة قد بينا حقيقة الإيمان بالله، وحقيقة الدين الحق أعظم بيان، وصار ذلك عند المؤمنين بالله حقاً أوضح من الشمس في رابعة النهار، وقد فهم الرسول ﷺ وأصحابه ومن تبعهم بإحسانٍ حقيقة الإيمان وحقيقة الدين الحق، ودرجوا عليه ودعوا إليه، وجاءت الأحاديث الصحيحة المستفيضة عن النبي ﷺ مبشرة بأنه لا تزال طائفة من الأمة علىٰ الحق منصورة ظاهرة إلىٰ قيام الساعة، وفي بعضها «حتىٰ يأتي أمر الله» فكيف يكون الدين والحالة هذه لم يفهم إلا في ومضات أو فترات قليلة خافتة؟ وكيف يكون البشر عاجزين عن فهمه وتصوره

تصوراً صحيحاً مع وضوحه وظهور أدلته؟ وكيف يجوز نسبة الله سبحانه إلىٰ أنه كلف البشر مالا يستطيعون فهمه، وأمرهم بشرائع قبل استعدادهم لها، فراحوا ضحايا هذا التصور الباطل؟ هذا الكلام في غاية الكفر والضلال والإلحاد، فقاتل الله هذا الرجل الخبيث، ما أعظم جرأته علىٰ الله ودينه، وما أشد تلبيسه وأبعده عن الهدىٰ! ومقصده من هذا الكلام دعوة الناس إلىٰ نبذ الدين جملة، لأنهم إذا سمعوا أنهم عاجزون عن تصوره تصوراً صحيحاً، وأنهم إن أخذوه أخذوه علىٰ غير وجهه فكان ضاراً لهم كرهوه ورفضوه واعتنقوا سواه، لاسيما إن عرفوا أن هذا المفتون الخبيث قد كان قبل هذا يظهر الدعوة إلىٰ الدين الحق ويرد علىٰ من خالفه، وإنما يغتر بمثل هذا ضعفاء البصائر، وأما من له أدنىٰ مسكة من عقل صحيح، وعلم نافع صحيح، فإنه لا يغتر بمثل هذا الزائغ وأضاليله للعلم بأن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، ولوضوح خطأه وزيغه. نسأل الله العافية والثبات علىٰ دينه» اهـ

ومما يدل علىٰ اهتمام الشيخ ﷺ أيضًا بردّ الشبهات والتصدّي لها تأليفه لكتاب «نقد القومية العربية علىٰ ضوء الإسلام والواقع» سنة ١٣٨١ هـ وقد طُبع عدة طبعات، وفيه ردٌّ علىٰ أفكار القومية العربية والشبهات التِي أثارها القوميون والعروبيون في تلك الفترة.

بالإضافة إلىٰ كثير مما أصدرَ الشيخ من الفتاوىٰ والمراسلات حول الغزو الفكري والردِّ علىٰ الأفكار المنحرفة[1]

(١) انظر: مجموع فتاوىٰ ومقالات متنوعة، للشيخ ابن باز (٤٣٨/٣) والمجلدات الأولىٰ من هذا المجموع كذلك.

وكذلك الشيخ محمد بن صالح العثيمين ﵀ (ت: ١٤٢١ هـ) كان لهُ حظٌ كبير ونصيبٌ وافر وجهد مبارك في مواجهة الأفكار المنحرفة، فلهُ فتاوىٰ كثيرة في الردّ علىٰ الإلحاد، كما أفرد مصنّفًا في الرد علىٰ الاشتراكية اسمه: «الأدلة علىٰ بطلان الاشتراكية» طُبع سنة ١٣٨١هـ، يقول الشيخ ﵀ فيه: «الحمد لله الحكيم في قدره وشرعه الواحد الأحد الفرد الصمد، اَلَّذِي لم يلد ولم يولد..» إلىٰ أنْ قال: «أما بعد، فإن الله ابتلىٰ المسلمين في هذا العام ١٣٨١ بظهورِ قانونٍ ظالمٍ جائر خارجٍ عن أحكام الله وحكمه مبنيٍ علىٰ ظلم العباد وإلقاء العداوة بينهم، وظهور البطالة في صفوفهم، والقضاء على مواهبهم الكسبية والعاطفية والعقلية، وذلك النظام هو ما يسمونه بالاشتراكية»، ثم بدأ بنقد الاشتراكية وإبطالها.

أما الشيخ عبد الرحمن السعدي ﵀ فقد كان صاحب القدح المُعلّىٰ في ذلك، فقد أفردَ في هذا الباب عدة مصنفات، غير ما ضمنّهُ كُتبه الكبيرة كالتفسير وغيره[(١)]، وهذه المؤلفات تدل علىٰ عظيم عناية الشيخ واهتمامهِ بهذا الباب، وهو حري بالعناية والاهتمام، ويدل علىٰ أهمية دور العلماء في الذب عن دين الله، والرد علىٰ انحرافات المنحرفين والدفاع عن أفكار الناس من الانحراف.

ومن كتب ورسائل الشيخ المفردة في هذا الباب ما يلي:

١ ـ انتصار الحق: محاورة دينية اجتماعية.

وهي رسالة صغيرة كتبها الشيخ علىٰ نمط فريد وأسلوب جديد، وهو

(١) انظر: جهود العلامة عبد الرحمن السعدي في الرد علىٰ المخالفين: الملاحدة أنموذجًا، للدكتور علي بن عمر السحيباني، ضمن مؤتمر الشيخ عبد الرحمن السعدي: آثاره العلمية والدعوية (٦١٣/١).

أسلوب الحوار، فجعله حوارًا بين صاحبين، أحدهما كان يدرس خارج بلاد المسلمين وقد تأثر بالأفكار الإلحادية وانبهر بالغرب، ثم عاد فلقيهُ صاحبهُ المسلم وبدأ يُناقشهُ، فجاء الكتاب على نمط فريد وجميل أوصل فيه الشيخ المقصود بطريقة بديعة[1].

وقد نُشرت الرسالة في مجلة المنهل سنة ١٣٦٧ هـ، ثم طُبعت ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ السعدي الصادرة عن مركز صالح بن صالح الثقافي في عنيزة سنة ١٤١١ هـ، ثم طُبعت مفردةً بعناية الدكتور عبد الله الطيار.

ثم طُبعت ضمن مجموع مؤلفات الشيخ في دار الميمان باسم: النصيحة الربانية في الرد على المغترين بدُعاة الإلحاد والمدنية الغربية.

٢ ـ أصول الدين.

وهي رسالة مختصرة، ضمّنَهَا بعض الردود على الملاحدة، وقد طُبعت ضمن مجموع مؤلفات الشيخ في دار الميمان، ثم طُبعت بعناية الدكتور سعد الشثري حفظه الله باسم: **أصول الدين والرد على الملحدين**.

٣ ـ الأدلةُ القواطع والبراهين في إبطالِ أصول الملحدين.

وهي في حقيقتها تلخيصٌ لقواعد ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ في نقضه لأساس التقديس المسمى «بيان تلبيس الجهمية»، فقد لخّصها الشيخ وزاد عليها بعض الأمور، وقد طبعت ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ

(١) انظر: الشيخ عبد الرحمن السعدي وجهوده في توضيح العقيدة، للشيخ عبد الرزاق البدر (ص ٥١).

السعدي الصادرة عن مركز صالح بن صالح الثقافي في عنيزة سنة ١٤١١ هـ، ثم طبعت مُفردةً بعناية الدكتور إبراهيم الحازمي.

٤ ـ تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله.

وهي رسالة في الرد على عبد الله بن علي القصيمي، الذي كان في أول أمرهِ من الدُعاة إلى التوحيد، ثم نَكَصَ على عقبيه وأصبح من الدُعاة إلى الإلحاد، وألفَ كُتبًا تطعن في الإسلام! من أشهرها كتاب «هذه هي الأغلال» نسأل الله السلامة والعافية، فرد عليه عدد من المشايخ والعلماء، منهم الشيخ عبد الرحمن السعدي في هذه الرسالة، ومن عناية الشيخ بالكتاب أنه عمل كشافًا لمسائله، وقد طُبع الكتاب بتحقيق عبد الرحمن بن يوسف الرحمة عن دار ابن الجوزي مع مجموعة من الرسائل الشخصية للشيخ عبد الرحمن حول كتاب الأغلال[(١)].

٥ ـ الدلائل القرآنية في أن العلوم والأعمال النافعة العصرية داخلة في الدين الإسلامي.

وهي رسالة لطيفة قصد بها الشيخ نفي التعارض بين الشريعة الإسلامية والمخترعات والمكتشفات العصرية، طُبعت في دار ابن الجوزي سنة ١٤٢٤ هـ

٦ ـ البراهين العقلية على وحدانية الربِ ووجوه كماله، وهي هذه الرسالة التي بين يديك، وسيأتي التعريف بها.

(١) انظر: السعدي والقصيمي والتنزيه والأغلال، حوار أحادي ولقاء لم يتم، للدكتور إبراهيم التركي، ضمن مؤتمر الشيخ عبد الرحمن السعدي: آثاره العلمية والدعوية (٢/٩٣٩).

* مقال للشيخ عبد الرحمن السعدي ﵀ في نقد تفسير طنطاوي جوهري المسمى «الجواهر في تفسير القرآن الكريم»:

ومن جهود الشيخ ﵀ كذلك في هذا الباب رسالة بعث بها إلىٰ السيد محمد رشيد رضا ﵀ تضمنت نقداً لتفسير الجواهر لطنطاوي جوهري[(١)].

وهو تفسير قد ظهر في بدايات القرن العشرين، حشاه مؤلفه بالعجائب الكونية والمسائل الطبيعية، وأتىٰ فيه بالغرائب والعجائب من العلوم، حتىٰ قال فيه: «إن هذه العلوم التي أدخلناها في تفسير القرآن هي التي أغفلها الجهلاء المغرورون من صغار الفقهاء في الإسلام، فهذا زمان الانقلاب، وظهور الحقائق، والله يهدىٰ مَن يشاء إلىٰ صراط مستقيم»[(٢)]!

بل فيه ما هو أشنع من ذلك من أصول وحدة الوجود وأصول الفلسفة المبنيّة علىٰ أن الشرائعَ إنما هي تخييلاتٌ وضربُ أمثال لا حقيقة لها! وقد مُنع هذا التفسير من التداول في المملكة العربية السعودية حينها[(٣)].

وقد بعث الشيخ عبد الرحمن السعدي ﵀ رسالة فيها نقد لهذا التفسير، فنشرها السيد محمد رشيد رضا في مجلة المنار، مع ردّه وتعليقه عليها، وذلك في شهر رجب سنة ١٣٤٦ هـ الموافق كانون الثاني من سنة ١٩٢٨م، في الجزء الثاني من المجلد التاسع والعشرين (ص ٢٤٣).

---

(١) انظر عن التفسير ومؤلفه: التفسير والمفسرون، للدكتور محمد حسين الذهبي (٢/٣٧٠).

(٢) تفسير الجواهر (٣/١٩).

(٣) انظر: التفسير والمفسرون، للدكتور محمد حسين الذهبي (٢/٣٧٢).

وسأُثبت هنا الرسالة بتمامها مع رد السيد محمد رشيد رضا عليها، إتمامًا للفائدة، لا سيما وأنها نادرة ومهمة:

من عنيزة إلىٰ قاهرة مصر في رجب سنة ١٣٤٦

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أبعثُ جزيل التحيات، ووافر السّلام والتشكّرات، لحضرة الشيخ الفاضل السيد محمد رشيد رضا المحترم، حرسه الله تعالىٰ من جميع الشرور، ووفّقه وسدّده في كل أحواله آمين.

أما بعـد:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

فالدّاعي لذلك ما اقتضاه الحبّ، ودفعه الودّ المبنيّ علىٰ ما لكم من المآثر الطيبة التي تستحقّون بها الشكر من جميع المسلمين، التي من أعظمها تصدّيكم في مناركم الأغرّ لنصر الإسلام والمسلمين، ودفع باطل الجاهلين والمعاندين، رفعَ الله قدرَكم، وأعلىٰ مقامكم، وزادَكم من العلم والإيمان ما تستوجبون خير الدنيا والآخرة، وأنعم عليكم بنعمه الظاهرة والباطنة.

ثم إننا نقترح علىٰ جنابكم أن تجعلوا في مناركم المنير بحثًا واسعًا لأمر نراه أهمّ البحوث التي عليها تعوّلون، وأنفعها لشدة الحاجة بل دعاء الضرورة إليه، ألا وهو ما وقعَ فيه كثير من فضلاء المصريين، وراج عليهم من أصول الملاحدة والزنادقة من أهل وحدة الوجود والفلاسفة، بسبب روَجان كثير من الكتب المتضمنة لهذه الأمور ممّن يحسنون بهم الظنّ، ككتب ابن سينا وابن رشد وابن عربي ورسائل إخوان الصفا، بل وبعض الكتب التي تُنسب للغزالي

وما أشبهها من الكتب المشتملة على الكفر بربّ العالمين، والكفر برسله وكتبه واليوم الآخر، وإنكار ما عُلِمَ بالضرورة من دين الإسلام.

فبعضُ هذه الأصول انتشرت في كثير من الصّحف المصريّة، بل رأيت تفسيرًا طُبع أخيرًا منسوبًا للطّنطاوي قد ذكر في مواضعَ كثيرة في تفسير سورة البقرة شيئًا من ذلك، ككلامه على استخلاف آدم وعلى قصة البقرة والطيور ونحوها، بكلامٍ ذكر فيه من أصول وحدة الوجود وأصول الفلسفة المبنيّة على أن الشرائعَ إنما هي تخييلاتٌ وضربُ أمثال لا حقيقة لها، وأنه يمكن لآحاد الخلق ما يحصل للأنبياء، ما يجزم المؤمن البصير أنه مناقضٌ لدين الإسلام وتكذيبٌ لله ورسوله، وذهابٌ إلى مَعانٍ يُعلم بالضّرورة أن الله ما أرادها، وأن الله بريءٌ منها ورسولُه، ثم مع ذلك يحثّ الناس والمسلمين على تعلّمها وفهمها، ويلومهم على إهمالها، وينسب ما حصل للمسلمين من الوهَن والضّعف بسبب إهمال علمها وعمَلها.

وَيْح من قال ذلك! لقد علمَ كلّ من عرف الحقائق أنّ هذه العلوم هي التي أوهنت قوى المسلمين، وسلّطت عليهم الأعداء، وأضعفتْهم لزنادقة الفرنج وملاحدة الفلاسفة، وكذلك يبحثُ كثيرٌ منهم في الملائكة والجنّ والشياطين، ويتأوّلون ما في الكتاب والسنة من ذلك بتأويلاتٍ تشبه تأويلات القرامطة الذين يتأوّلون العقائد والشرائع، فيزعمون أنّ الملائكة هي القوى الخيرية التي في الإنسان، فعبَّر عنها الشرعُ بالملائكة، كما أنّ الشياطين هي القوى الشريرة التي في الإنسان، فعبَّر عنها الشرع بذلك، ولا يخفى أنّ هذا تكذيبٌ لله ولرسله أجمعين.

ويتأوّلون قصة آدم وإبراهيم بتأويل حَاصِلُه: أنّ ما ذكر الله في كتابه عن آدم وإبراهيمَ ونحوهما لا حقيقة له، وإنما قُصد به ضربُ الأمثال.

وقد ذكر لي بعضُ أصحابي أنّ مناركم فيه شيءٌ من ذلك، وإلىٰ الآن ما تيسّر لي مطالعته، ولكنّ الظنّ بكم أنّكم ما تبحثون عن مثل هذه الأمور إلا علىٰ وجه الرّدّ لها والإبطال، كما هي عادتكم في ردّ ما هو دونها بكثير، وهذه الأمور يكفي في ردّها في حق المسلم المصدّق للقرآن والرّسول مجرّد تصوّرها، فإنه إذا تصوّرها كما هي يجزم ببطلانها ومناقضتها للشرع، وأنه لا يجتمع التصديق بالقرآن وتصديقها أبدًا، وإن كان غير مصدّق للقرآن ولا للرّسول صارَ الكلام معه كالكلام مع سائر الكفار في أصل الرّسالة وحقّيّة القرآن.

وقد ثبت عندنا أنّ زنادقة الفلاسفة والملحدين يتأوّلون جميع الدين الإسلامي: التوحيد والرسالة والمعاد والأمر والنهي بتأويلٍ يرجعُ إلىٰ أنّ القرآن والسنة كلّها تخييلاتٌ وتمويهاتٌ لا حقيقةَ لها بالكلّية، ويَلبسون علىٰ الناس بذلك، ويتستّرون بالإسلام، وهم أبعدُ الناس عنه.

كما ثبتَ أيضاً عندنا أنّه يوجد ممّن كان يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر ويعظّمُ الرسول وينقادُ لشرعه وينكرُ علىٰ هؤلاء الفلاسفة ويكفّرهم في أقوالهم أنه يدخل عليه شيءٌ من هذه التأويلات من غير قصدٍ ولا شعورٍ لعدم علمه بما تؤول إليه، ولرسوخ كثيرٍمن أصول الفلسفة في قلبه، ولتقليد من يعظّمه، وخضوعًا أيضاً، ومراعاةً لزنادقة علماء الفرنج الذين يتهكّمون بمن لم يوافقهم علىٰ كثيرٍ من أصولهم ويخافون من نسبتهم للبلادة، وإنكار ما عُلم محسوسًا بزعمهم.

فبسبب هذه الأشياء وغيرها دخلَ عليهم ما دخل ، فالأملُ قد تعلّق بأمثالكم لتحقيق هذه الأمور وإبطالها ، فإنها فشت وانتشرت وعمّت المصيبةُ بها الفضلاء فضلاً عمّن دونهم ، ولكن لن تخلوَ الأرض من قائم لله بحجة يهتدي به الضالّون ، وتقوم به الحجة على المعاندين .

وقد ذكرتُ لحضرتكم هذه الأشياء على وجه التنبيه والإشارة ؛ لأنّ مثلكم يتنبّه بأدنى تنبيه ، ولعلكم تجعلونه أهمّ المهمّات عندكم ؛ لأنّ فيه الخطر العظيم على المسلمين ، وإذا لم يرَ النّاسُ لكم فيه كلامًا كثيرًا وتحقيقًا تامّاً فمن الذي يُعلَّق به الأملُ من علماء الأمصار؟ والرجاء بالله أن يوفّقنا وإيّاكم لما يحبّه ويرضاه ، ويجعلَنا وإيّاكم من الهادين المهتدين ، إنّه جواد كريم ، وصلى الله على محمد وسلم .

محبكم الداعي

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

وهذا ردّ السيد محمد رشيد رضا على الرسالة

إننا لا نألوا جهدًا في الرّدّ على كل ما نطّلعُ عليه من البدع المخالفة لكتاب الله والصّحيح من سنة رسوله ﷺ، وفي الدعوة إليهما على الوجه الذي كان عليه جمهور السلف الصالح، وفي الرّدّ على خصومهما كما يُرى في مقالة (أعداء الإسلام) من هذا الجزء.

والذي نعلمه: أنّ بدعة وحدة الوجود وفلسفة اليونان في الإلهيات والرسالة التي فَتن الناسَ بها الباطنيةُ وغيرُهم في عصرهم قد نُسخت وزالت في هذا العصر، فلم يبقَ لهم دعاة، وإن كان لها أتباعٌ قليلون.

وتفسيرُ الشّيخ طنطاوي جوهري لم نطّلع عليه، وإنما رأينا جزءاً واحدًا منه عند أحد أصدقائنا، فتصفّحتُ قليلاً منه في بضع دقائق، فرأيت أنّ همّه منه حثُّ المسلمين على علوم الكون، وشرحُ الكثير من مسائلها بمناسبة الآيات التي تُرشد الناس إلى آياته تعالى في خلقه، ونعَمه على عباده، كما جرى عليه في كتبٍ أخرى له، وما نعرفه هو إلا مسلمًا يغارُ على الإسلام، ويحبّ أن يَجمع المسلمون بين الاهتداء به والانتفاع بعلوم الكون التي تتوقف عليها قوّة الدول وثروة الأمم في هذا العصر.

ونحن قد سبقناه بالدعوة إلى هذا، وبيّنّاه بالدلائل في مواضعَ كثيرة من تفسيرنا من المنار، وإن كنّا أشرْنا إلى الانتقاد على خطة الأستاذ المذكور في تفسيره فيما بيّنّاه من أساليب المفسرين في فاتحة الجزء الأول من تفسيرنا، ولعلّنا نتحرّى عند سنوح الفرصة الاطّلاعَ على تفسيره، ومراجعة ما كتبه من الآيات

التي ذكرتموها.

ويجب عليكم أن تفرّقوا بين علوم الكون التي ندعو إليها، وبين الفلسفة قديمها وحديثها، فالفلسفة آراءٌ ونظرياتٌ فكرية، وعلومُ الكون عبارةٌ عن العلم بما أودع الله تعالىٰ في خَلقه من المنافع، كمنافع الماء وبخاره والهواء، وما تركّبا منه، ومنافع الكهرباء التي منها التلّغراف والتليفون وغيرهما، فجميعُ الصناعات العجيبة والآلات الحربية من برّيّة وبحرية وهوائية وجميعُ العقاقير الطبّيّة مأخوذةٌ من هذه العلوم، فهي حقائقُ قطعيّة ثابتةٌ بالحسّ، فمن يزعم أنها تخالف ما بعثَ به الله رسلَه فقد طعنَ في دين الله، وصدّ العلماء بها عنه؛ لأنهم لا يستطيعون أن يكذّبوا حواسّهم.

وأما كفرُ من يكفُرون في هذا العصر فأكثره من تأثير فلسفة الإفرنج المخالفة لفلسفة اليونانيين ومن جرَىٰ علىٰ طريقتهم كالعرب، وإن خالفهم في بعض النظريّات كابن سينا وابن رشد وغيرهما.

والردُّ علىٰ هؤلاء بما يُرجىٰ أن ينفعَهم أو يقي كثيرًا من الناظرين في فلسفة العصر من إضلالهم يتوقّف أحيانًا علىٰ تأويل بعض الآيات والأحاديث تأويلاً ينطبقُ علىٰ مدلولات اللغة في مفرداتها وأساليبها، ويتفقُ مع العلم والعقل.

وليعلمْ أخونا صاحبُ هذه الرسالة أنّ الملاحدة والمعطّلين في مصر وأمثالها قد يصرِّحون بكفرهم، ولا يخشَون عقابًا ولا إهانة، فهم لا يحتاجون إلىٰ التّستّر بالإسلام كزنادقة الباطنية المتقدمين، وقُصارىٰ ما يلقَونه من النقد إذا صرَّحوا بكفرهم في الكتب أو الجرائد أن يردّ عليهم بعضُ المسلمين بالكتابة، والناس أحرارٌ فيها.

فإذا ادّعىٰ بعضُهم مع نشر الكفر أنه مؤمن، وجدَ من ينصره ويقول: إنّ ما كتبه لا ينافي الإيمان ولا يصادم الإسلام، ولم يصرِّحْ أحدٌ من المصريّين في هذا العهد بالطّعن في الإسلام وتكذيب القرآن بمثل ما صرَّح به الدكتور طه حسين المشتغل بالجامعة المصرية تدريسًا وتأليفًا، ولم يلقَ أحدٌ من التكفير والتجهيل والطّعن علىٰ ذلك مثل ما لقيَ من الكُتَّاب والمؤلفين من علماء الدين وعلماء الدنيا، حتىٰ اقترح بعضُ أعضاء مجلس النوّاب عزلَه من الجامعة، فلم تعزلْه الحكومة؛ لأنّ أنصاره فيها كانوا أقوىٰ من خصومه، وكان منهم عدلي باشا رئيسُ الوزارة وثروت باشا وزير الخارجية الذي طرَّزَ الدكتورُ طرةَ كتاب الطّعن باسمه، وعلي باشا الشمسي وزير المعارف، وأحمد لطفي السيد مدير الجامعة.

وقد بيَّنا في فاتحة تفسيرنا وفي مواضعَ أخرىٰ منه مسألة التأويل، فذكرنا أننا نلمّ بتأويل بعض الآيات لأجل الدفاع عن القرآن، وردّ بعض الشبهات التي يوردُها الفلاسفة أو غيرُهم عليها، حتىٰ لا يكون لهم حجّة مقبولة عليها، مع تصريحنا بأنّ اعتقادنا الذي ندعو إليه ونرجو أن نموت كما نحيا عليه هو اتّباعُ مذهب السلف في كل ما يتعلّق بعالم الغيب من الإيمان بالله وصفاته وملائكته وجنّته وناره.

والتأويلُ قد يكون المُنقذَ الوحيدَ لبعض الناس من الكفر وتكذيب القرآن؛ إذ من المعلوم أنّ الموقن بصدق القرآن لا يخرج من الملة بفهم بعض آياته فهمًا مخالفًا لفهم غيره إذا لم يكن في فهمه هذا جحدٌ لشيءٍ مجمعٍ عليه معلومٍ من الدين بالضرورة.

ونرجو أن يقرأ أخونا صاحبُ هذه الرسالة الجزءَ الأول من تفسير المنار

المشتمل على هذا البحث، ويكتب إلينا بما يراه فيه، فإنني كنتُ منذ سنينَ كثيرة أتمنَّى لو يطلعُ بعضُ علماء نجدٍ على المنار، ويفتح بيني وبينهم البحثُ والمناظرةُ العلمية الدينية فيما يرونه منتقَدًا لينجليَ وجه الصواب فيها.

وقد كنتُ كتبتُ إلى إمامهم بذلك، وإنني سأرسل إليه عشر نسخ من كلّ جزء ليوزّعها على أشهَرهم، وفعلتُ ذلك عدّة سنين، ولكن لم يأتني منه جواب، ثم ترجَّح عندي أن تلك النسخ كانت تختزل من البريد البريطاني في سنيّ الحرب وما بعدها.

المقدمة الثالثة

الاستدلال العقلي على مسائل التوحيد وعلاقته بعلم الكلام

سمى الشيخ عبد الرحمن السعدي ﵀ هذه الرسالة بـ«البراهين العقلية على وحدانية الرب» أي أنها تتعلق بتوحيد الربوبية، وأنه سيعتمد في بنائه الاستدلالي على الأدلة العقلية، وقد صرّح بذلك في المقدمة حيث قال: «وليس القصدُ في هذه المحاضرة ذكرُ الأدلة النقليةِ عليها؛ فإن الكتابَ والسُّنَّةَ فيهما من البراهين والأدلة على ذلك ما لا يُعدُّ ولا يُحصى، ولا يمكن استيفاءُ بعضه، وهي واضحةٌ جليةٌ؛ يعرفها الخواصُ والعوام، وبعضُ ذلك كافٍ وافٍ بالمقصود، ولكننا نُريدُ في هذه المحاضرةَ أن نُشيرَ إشارةً يسيرةً إلى براهينها العقلية التي يشتركُ في معرفتها والخضوعِ لها جميعُ العُقلاءِ من البشر، ولا يُنكرُها إلا كُلُّ مكابرٍ مُستكبر، منابذٍ للعقلِ والدين»

وهذا الصنيع من الشيخ ﵀ قد يظنّه بعضُ شُداة العلم مشابهةً لطريقة أهل الكلام التي ذمّها السلف ﵃ في إثبات العقائد، وهذا غير صحيح.

لأن علم الكلام المذموم هو ما أحدثه المتكلّمون في أصول الدين، من إثبات العقائد بالطرق التي ابتكروها، وأعرضوا بها عما جاء الكتاب والسنة به في الدلائل والمسائل، فمُراد «السلف والأئمة بذم الكلام وأهله إذ ذلك يتناول لمن استدل بالأدلة الفاسدة أو استدل على المقالات الباطلة»[(١)].

(١) بيان خاتم النبيين ﷺ لأصول الدين، لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص ٢٩).

قال الإمام مالك بن أنس ﷺ: «من طلب الدين بالكلام تزندق»[١]، وروي مثله عن الإمام أبي يوسف صاحب أبي حنيفة ﷺ[٢]

وقال الإمام الشافعي ﷺ: «لأن يُبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه سوى الشرك خير له من الكلام، ولقد اطّلعتُ من أصحاب الكلام على شيءٍ ما ظننتُ أن مسلمًا يقول ذلك»[٣]

وقال أيضًا: «ما ارتدى أحدٌ بالكلام فأفلح»[٤]، وقال: «حُكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد ويطاف بهم في العشائر والقبائل ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام»[٥].

وقال الإمام أحمد بن حنبل ﷺ: «لا تجالسوا أهل الكلام وإن ذبّوا عن السنة»[٦].

وقال أيضًا: «لا يفلح صاحب كلام أبدًا، ولا يرى أحد نظر في الكلام إلا في قلبه دغل»[٧]

وعبارات السلف كثيرة في هذا المعنى، بل صنفوا فيه مصنفات مفردة.

(١) ذم الكلام وأهله، للهروي (٥/٧١).
(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للالكائي (١/١٦٦)، وذم الكلام وأهله، للهروي (٥/٢٠٢).
(٣) رواه ابن أبي حاتم الرازي في مناقب الشافعي (ص ٢٢٣) والبيهقي في مناقب الشافعي (١/٤٥٢).
(٤) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٩/١١١)، وقوام السنة في الحجة في بيان المحجة (١/٢٢٤).
(٥) ذم الكلام وأهله، للهروي (٤/٢٩٤)، وجامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر (٢/٩٤١).
(٦) مناقب الإمام أحمد، لابن الجوزي (ص ١٥٩).
(٧) تحريم النظر في كتب الكلام، للموفق ابن قدامة (ص ٤١).

قال ابن حمدان ﷺ: «وقد ورد في ذم الكلام عن السلف والخلف شيء كثير مشهور حتى إن شيخ الإسلام الأنصاري جمع من ذلك مجلدًا»[(١)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ: «وقد جمع الناس من كلام السلف والأئمة في ذلك مصنفات مفردة، مثل ما جَمَعَه الشيخ أبو عبد الرحمن السُّلَمي[(٢)]، ومثل المصنف الكبير الذي جمعه الشيخ أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري الملقب بشيخ الإسلام الذي سماه ذم الكلام وأهله[(٣)]، ومن ذلك في كتب الآثار والسنة ما شاء الله»[(٤)].

قلت: وممن أفرد مصنّفًا في ذم علم الكلام من العلماء أيضًا أبو سليمان الخطّابي ﷺ (ت: ٣٨٨ هـ) وسمّاه «الغُنية عن الكلام وأهله»[(٥)]، وموفق الدين

(١) صفة المفتي والمستفتي، لابن حمدان (ص ٤٨).

(٢) قلت: هو أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السُّلمي ﷺ صاحب التصانيف المشهورة (ت: ٤١٢ هـ)، وكتابه في ذم الكلام مفقود، ولكن طُبع كتاب أحاديث في ذم الكلام وأهله مُنتخبة من كتابه، لتلميذه أبي الفضل عبد الرحمن بن أحمد المقرئ (ت: ٤٥٤ هـ) بتحقيق الدكتور ناصر الجديع.
وقد روى أبو إسماعيل الهروي عن السلمي في كتابه في ذم الكلام روايات كثيرة.

(٣) قلت: وهو كتاب «ذم الكلام وأهله» لشيخ الإسلام أبي إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي (ت: ٤٨١ هـ)، وهو مطبوع مشهور.
قال الإمام ابن المبرد عنه: «شيخ الإسلام الأنصاري، صاحب «منازل السائرين» المعظّم عند كل الطوائف، المتفق على علمه وزهده ودينه، ومن أراد ذلك فلينظر إلى كتابه ذم الكلام» اهـ من كتاب جمع الجيوش والدساكر (ص ١٠٥).

(٤) درء تعارض العقل والنقل (١٤٥/٧).

(٥) الكتاب مفقود ولكن أورد جزءًا كبيرًا منه شيخ الإسلام ابن تيمية في درء التعارض (٢٧٨/٧ ـ ٣١٦) وعلّق عليه بتعليقات نفيسة، كما أورد جزءًا كبيرًا أيضًا الحافظ السيوطي في كتابه «صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام».

ابن قدامة ﷺ (ت: ٦٢٠ هـ) وسمّاه «تحريم النظر في كتب الكلام»، وهو ردٌّ على مقالةٍ لأبي الوفاء ابن عقيل ﷺ (ت: ٥١٣ هـ).

وقال البغوي ﷺ: «واتفق علماء السلف من أهل السنة على النهي عن الجدال والخصومات في الصفات، وعلى الزجر عن الخوض في علم الكلام وتعلمه»[(١)].

وقال ابن عبد البر ﷺ: «أجمع أهل الفقه والآثار من جميع الأمصار أن أهل الكلام أهل بدعٍ وزَيْغٍ ولا يُعدّون عند الجميع في طبقات الفقهاء، وإنما العلماء أهل الأثر والتفقه فيه، ويتفاضلون فيه: بالإتقان، والمَيْزِ، والفهم»[(٢)].

ولم أجد من حرّر المعنى المذموم لعلم الكلام أفضل من شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ، إذ وضّح مقصود السلف في ذم الكلام وأهله في قاعدة نفيسة، سأنقل عنها نقلًا مطولًا لأهميتها وتحريرها.

قال ﷺ: «الكلام الذي ذمَّه ونهى عنه الأئمَّة والسَّلفُ الصالح، كما هو مشهورٌ متواترٌ عنهم في كتب السُّنَّة والحديث والتصوُّف وكلام الفقهاء وغيرهم، وقد جمع فيه شيخُ الإسلام الأنصاري كتابه المشهور، ولمالك والشافعي والإمام أحمد وغيرهم في ذلك نصوصٌ مشهورة = قد حصل فيه اضطراب؛ فإن من الناس من يعتقدُ أنهم نَهَوا عن جنس الاستدلال والمجادلة في أصول الدين، ثم تحزَّبوا حزبين، بل ثلاثة: . .».

(١) شرح السنة، للبغوي (١/٢١٦).

(٢) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر (٢/٩٤٢).

ثم فصّلها إلى أن قال: «وحزبٌ ثالث اعتقدوا فضلَ الأئمَّة والسَّلف، واعتقدوا الحاجة والانتفاع والاستحسان لِمَا خاضوا فيه من الكلام في أصول الدين؛ فقالوا: الذي نهى عنه السَّلف ﷺ هو الكلام الذي انتحله أهلُ البدع من المعتزلة ونحوهم ممن يخالفُ السُّنَّة، لا الكلام الذي تُنْصَرُ به السُّنَّة، وهذه طريقة البيهقي[1]..».

إلى أن قال: «**والتحقيق أن الذي نهى عنه السَّلف هو الكلام المبتدَع الذي لم يَشْرَعه الله ولا رسوله**، كما قد قرَّرتُ في «قاعدة السُّنَّة والبدعة» أن البدعة هي ما لم يُشْرَع من الدين.

وغلبةُ اسم «الكلام» على الكلام المبتدَع كغلبة اسم «السَّماع» على السَّماع المبتدَع؛ فإن ناسًا لما أحدثوا سماع القصائد والتَّغبير، لتحريك قلوبهم وصلاحها، وإثارة مقاصدها ومَواجِدها، وأحدثَ آخرون كلامًا ونظرًا، لِعِلْم

(١) قلت: يشير ﷺ إلى قول البيهقي تعليقًا على ذم الشافعي لعلم الكلام المذكور آنفًا، حيث قال: «قلت: إنما أراد الشافعي ﷺ بهذا الكلام حفصاً وأمثاله من أهل البدع، وهذا مراده بكل ما حكى عنه في ذمّ الكلام وذم أهله، غير أن بعض الرواة أطلقه، وبعضهم قيده، وفي تقييد من قيده دليل على مراده.

أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، قال: حدثنا عبد الله بن محمد بن حبان، قال: حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن زياد، قال: سمعت أبا الوليد بن الجارود يقول: دخل «حفص الفرد» على «الشافعي» فكلمه، ثم خرج إلينا الشافعي فقال لنا: لأن يلقى اللهَ العبدُ بذنوب مثل جبال تِهَامَة خير له من أن يلقاه باعتقاد حرف مما عليه هذا الرجل وأصحابه. وكان يقول بخلق القرآن.

وهذه الروايات تدل على مراده بما أطلق عنه فيما تقدم وفيما لم يذكر هاهنا وناظر من ناظره فيه، وكشف عن تمويه من ألقى إلى سمع بعض أصحابه من أهل الأهواء شيئاً مما هم فيه؟» اهـ من مناقب الشافعي، للبيهقي (١/٤٥٤ ـ ٤٥٥).

قلوبهم، وصلاح عقائدهم، وتحقيق مقالهم = كان هؤلاء فيما أحدثوه من الأصوات المسموعة شبيهًا بهؤلاء فيما أحدثوه من الحروف المنطوقة.

وعبَّروا هم والمسلمون عن ذلك بأعمِّ صفاته، وهو السَّماع، والكلام، فإذا أُطلِق اسمُ «السَّماع» عند كثيرٍ من الناس، أو قيل: فلانٌ يحضر السَّماع، أو يقول به، وفلانٌ ينكر السَّماع وينهى عنه، انصرف الإطلاقُ إلى السَّماع المُحْدَث الذي هو موردُ النزاع.

وإن كان السَّماع المشروع المأمور به، الذي هو واجبٌ تارةً ومستحبٌّ أخرى، هو سماعًا أيضًا، بل هو السَّماع المعروف في كلام من حَمِدَ السَّماعَ وأثنى عليه من المُحْتَذِين طريقة السَّلف رضي الله عنهم.

وكذلك إذا أُطلِق لفظُ «الكلام» الذي يذمُّه وينهى عنه قوم، ويمدحُه ويأمر به آخرون، فإنه عندهم هو الكلام المُحْدَث وإن كان الكلامُ الذي أنزله الله تعالى هو أصدقَ الكلام وخيرَه وأفضلَه، وكلامُ النبي ﷺ والصَّحابة والتابعين والأئمَّة كلامًا.

لكن خُصَّ المُحْدَثُ من النوعين باسم «الكلام» و«السَّماع»؛ لأن هذا الاسم بمجرَّده تعبيرٌ عنه، لا يدلُّ على حمدٍ ولا ذم، ولا أمرٍ ولا نهي، واللام فيه تنصرفُ إلى المعهود.

بخلاف ما كان من الكلام والسَّماع مشروعًا، فإن ذاك يُعَبَّر عنه بأخصِّ أسمائه، مثل: عِلم، وقرآن، وسماع القرآن، ونحو ذلك؛ لأن من عادة العرب وغيرهم في الخطاب: إذا كان تحت الجنس نوعان عبَّروا عن أشرفهما باسمه

الخاصِّ، وتركوا الاسم المشترك للنوع المرجوح، كما فعلوا ذلك في مثل لفظ: دابة، وحيوان، وذوي الأرحام.

وقولنا: «كلام» أو «سماع» إنما هو تعبيرٌ عنه بالاسم المشترك بين الحق والباطل، والهدىٰ والضلال، والغيِّ والرشاد، فإذا كان عندهم متميزًا بما يدل علىٰ أنه حقٌّ وهدًىٰ ورشادٌ عبَّروا عنه بالاختصاص، كما أنه إذا كان متميزًا بما يقتضي أنه باطلٌ وضلالٌ وغيٌّ عبَّروا عنه بالاختصاص.

ولا ريب أن المُحْدَث من النوعين ليس حقًّا وهدًىٰ ورشادًا من كلِّ وجه، ولا باطلًا وضلالًا وغيًّا من كلِّ وجه، وهذا باتفاق جميع الطوائف..».

إلىٰ أن قال: «**إذا عُرِف هذا، فالكلام المبتدَع المذموم هو الذي ليس بمشروعٍ ولا مسنون، وليس بحقٍّ ولا حسن، وهذان الوصفان متلازمان**، فإن كلَّ مشروعٍ مسنونٍ فهو حقٌّ حسن، وكلَّ ما هو حقٌّ حسنٌ فهو مشروعٌ مسنون، وكذلك بالعكس، وذلك أن الكلام نوعان: إنشاء، وإخبار.

فأما الإنشاء، فمثل: الأمر والنهي، فكلُّ أمرٍ ونهيٍ لا يكون موافقًا لأمر الله تعالىٰ ونهيه فهو ضلالٌ وغيٌّ.

وأما الإخبار، وهو الغالبُ علىٰ فنِّ الكلام المتنازع فيه، فإنه إخبارٌ عن حقائق الأمور الموجودة والمعدومة، كالإخبار عن الله تعالىٰ وصفاته وأفعاله، وعن المعاد وما يكون بعد الموت، وعما مضىٰ قبلنا، وما سيكون بعدنا.

والإخبار عن هذه الأمور إن كان مطلوبًا فهو المسائل والأحكام، وإن كان طريقًا إلىٰ المطلوب فهو الوسائل والأدلة.

فالكلام يشتمل على هذين الصنفين: المسائل، والدلائل، والذمُّ والنهيُ واقعٌ في هذين الجنسين:

١ ـ أما المسائل، فكلُّ جواب مسألةٍ خالف الكتابَ والسُّنَّة وما كان عليه السلف فهو بدعةٌ وضلالة، وهو من الكلام المذموم المنهيِّ عنه، سواءٌ كانت المسألة نفيًا أو إثباتًا، مثل: إنكار صفات الله أو بعضها الذي جاء به الكتابُ والسُّنَّة، وإنكار قَدَر الله وقدرته ومشيئته، أو إنكار محبَّته ورضاه وخُلَّته وتكليمه وعلوِّه على عرشه، أو إنكار فتنة القبر وعذابه ونعيمه، والحوض والميزان والشفاعة والصراط ونحو ذلك من عقود أهل السُّنَّة التي أثبتتها نصوص الكتاب والسُّنَّة وآثار السَّلف.

ثم المُنْكِر لذلك أو بعضه هو مفترٍ، ولهذا كان السَّلف ﷺ يسمُّونهم: «أهل الفِرَى»، ويتأوَّلون فيهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢]، قال أبو قلابة ﷺ: «هي لكلِّ مفترٍ من هذه الأمة إلى يوم القيامة».

وهو مفترٍ من وجهين:

أحدهما: نفيُ ما أثبته الكتابُ والسُّنَّة، أو إثبات ما نفاه.

والثاني: تحريفُ النصوص بما يوافقُ ظنَّه وهواه، ودعواه أن ذلك هو معناها.

فهو مخبرٌ عن الأمور بخلاف ما هي عليه، ومخبرٌ عن النصوص بخلاف ما دلَّت عليه، فافترى في الوجودَين: العيني، والعِلْمي.

٢ ـ وأما الدلائل، فإنهم كثيرًا ما يستدلُّون ويحتجُّون على الحقِّ الذي جاء به الكتابُ والسُّنَّة بحججٍ مُحْدَثةٍ باطلة، ثم تلك تُوقِعُهم في البدع المخالفة للكتاب والسُّنَّة، بمنزلة الذي يجاهد الكفَّار بقتالٍ محرَّم في الشريعة، فيزيل باطلًا بباطل.

ولهذا كان السَّلف إذا قيل: فلانٌ يردُّ على فلان، قالوا: بكتابٍ وسنة؟ فإن قال: «نعم» صوَّبوه، وإن قال: «لا» قالوا: ردَّ بدعةً ببدعة وكثيرًا ممَّا أوقعهم ـ أو أكثر ما أوقعهم في البدع المخالفة للكتاب والسُّنَّة احتجاجُهم لنوعٍ من الحقِّ بحجَّة مبتدعةٍ اعتقدوا أنها لا تَسْلَمُ من المناقضة والمعارضة إلا بما التزموه لتصحيحها من اللوازم التي قد يخالفون بها الكتابَ والسُّنَّة.

وكان مبدأ ذلك تكلُّمهم في «الجسم، والجوهر، والعَرَض»، وظنُّهم أن بهذا التقسيم والترتيب يَثْبُت لهم وجودُ الصانع، وحدوثُ العالم، ونحو ذلك.

فلم ينكر السَّلفُ مجرَّد إطلاق لفظٍ له معنًى صحيح، كما يعتقده قومٌ من الناس من أهل الكلام وغيرهم؛ فإنَّا عند الحاجة إلى الخطاب نخاطبُ الرجل بالفارسية والرُّومية والتُّركية.

والنبيُّ ﷺ لما كتب إلى أهل اليمن، كتب إليهم بلغتهم التي يتخاطبون بها، وليست هي لغة قريش.

ولما قَدِمت أمُّ خالدٍ من أرض الحبشة، وكانت قد سمعت لغتهم، قال لها لما أعطاها الخَمِيصة: «يا أم خالد، هذا سَنَا»، والسَّنا بلسان الحبشة: الحَسَن، أراد مخاطبتَها بذلك إفهامًا لها وتطييبًا لنفسها.

ولا بأس أن يخاطِبَ المسلمُ كلَّ قومٍ بلغتهم التي يعرفون؛ لِقَصْدِ إفهامهم، إذا لم يحصُل المقصودُ بخطابهم بالعربية لكن كَرِه السَّلفُ والأئمَّة، كمالك والشافعي والإمام أحمد التخاطبَ بغير العربية لغير حاجة؛ لأنها شعارُ أهل القرآن والإسلام، وبها يَعْرِفون ما أُمِروا بمعرفته من أمر دينهم، ولمعاني أُخَر ذكرتُها في «اقتضاء الصِّراط المستقيم مخالفةَ أصحاب الجحيم»، فلم تكن كراهةُ السَّلف لمجرَّد اللفظ.

ولا كَرِهوا أيضًا معنًى صحيحًا يكون دليلًا على حقٍّ، كما يتوهَّمه أيضًا هؤلاء، ويقولون: «إن كُرِه اللفظُ فهو اصطلاحيٌّ كاصطلاحات سائر العلماء من الفقهاء والنحاة، وإن كُرِه المعنى فلا يريد إلا الدلالة على أصول الدين، مثل: ثبوت الصانع، ووحدانيته، وصحة الرسالة والنبوة»؛ فإن هذا المعنى لم يكرهه السَّلف، ولا يكرهه مؤمنٌ عليم.

كيف والقرآن من أوله إلى آخره إنما هو في تقرير هذه المعاني التي هي أعلامُ علوم الدين، وأشرفُ مقاصد الرسل؟!

وقد صرَّف الله في القرآن الدَّلالات بوجوه المقاييس، وضرب الأمثال، وأنواع القصص، وغير ذلك مما هو دليلٌ ومرشدٌ إلى الإيمان بهذه الأصول وكيفَ وعلمُ الإيمان بهذه الأصول هو أفضلُ علمٍ في الدين، والكاملون فيه هم خلاصةُ الأمة؟!

وبمثله برَّز السابقون والمقرَّبون، وقيل في الصدِّيق ﷺ صدِّيق الأمة: «ما سبقهم أبو بكرٍ بفضل صلاةٍ ولا صيام، ولكن بشيءٍ وَقَر في قلبه».

وقد مدح الله أهلَ العلم به في غير موضع، وقال فيهم: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]، وقال فيهم: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ﴾ [سبأ: ٦]، إلى غير ذلك مما ليس هذا موضعه.

فكيف يكره السَّلفُ رضي الله عنهم معانٍ إما هي واجبةٌ وإما مستحبَّة؟! وكيف وهؤلاء السَّلف لهم من الدلائل والبراهين في مسائل السُّنَّة والردِّ على أهل البدع ما ليس هو لمن ذمُّوه من أهل الكلام؟! وإن أنكروا الطرق والدلائل المُحْدَثة المبتدَعة؛ لما فيها من الفساد والتناقض، وأنها من جنس الكذب والخطأ فتدبَّر هذا؛ فإنه فرقانٌ يفرِّق الله به بين الحقِّ والباطل.

وإنما أضربُ لك أمثلةً من أدلتهم وحججهم الفاسدة، كما ضربتُ لك أمثلةً من مسائلهم الفاسدة.

وذلك أن أهل الكلام من أهل قبلتنا يأخذون كثيرًا في الردِّ على من خالف المسلمين من المشركين والمجرمين واليهود والنصارى، ويأخذ كثيرٌ منهم في الردِّ على من خالف السُّنَّة في بعض المواضع، وإن كان الرادُّ قد يخالفُ هو السُّنَّة في موضعٍ آخر.

فيريدون أن يثبتوا وحدانية الصَّانع وكماله، ويثبتون نبوَّة محمد ﷺ، ويسمُّون هذه المطالب «العقليات»؛ لاعتقادهم أنها لا تثبتُ إلا بالعقل الذي ادَّعوه وكانوا مختلفين في طرقه!

وقد يعتقدون أن الكتابَ والسُّنَّة لم تبيِّن أدلة هذه المطالب الشريفة! والقرآن

مملوءٌ منها.

ولم يعلموا أن كون العقل قد يعلمُ صحَّتها لا يمنع أن يكون الشرعُ دلَّ عليها وأرشد إليها، فهي شرعيةٌ عقلية، بل ما يبيِّنه الكتابُ والسُّنَّة من أدلة هذه المطالب فوق ما في قُوىٰ البشر، ولم يأت أهلُ الفلسفة والكلام من ذلك إلا بحقٍّ قليلٍ مخلوطٍ بباطلٍ كثير، فلبَسُوا الحقَّ بالباطل»[(١)].

فتلخّص من كلامه ﷺ أن الذم في علم الكلام ليس مجرّد الاستدلال العقلي على إثبات التوحيد، وإنما الذم ينصبّ على الاستدلال بالدلائل الفاسدة، أو على المسائل الباطلة.

أما من استدل بالدلائل الصحيحة عقليةً أو نقليةً على المسائل الصحيحة فليس من الذمّ في شيء، بل هذا هو منهج أئمتنا رحمة الله عليهم أجمعين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأحمد ﷺ قد رَدّ على الجهمية وغيرهم بالأدلة السمعية والعقلية، وذكر من كلامهم وحججهم ما لم يذكره غيره، بل استوفى حكاية مذهبهم وحججهم أتم استيفاء، ثم أبطل ذلك بالشرع والعقل»[(٢)].

ومن هنا نعلم خطأ أبي المعالي الجويني فيما نَسَبه للإمام أحمد ﷺ حيث قال: «وصار صائرون إلى النهي عن القياس العقلي والأمر بالقياس الشرعي، وهذا مذهب أحمد بن حنبل والمقتصدين من أتباعه فليسوا ينكرون إفضاء نظر

(١) فصل في «الكلام» الذي ذمه الأئمة والسلف، ضمن جامع المسائل، لشيخ الإسلام ابن تيمية (٩/٥ ـ ١٧).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (١٤٩/٧).

العقل إلى العلم ولكنهم ينهون عن ملابسته والاشتغال به»[1]

لذلك ردّ عليه شيخ الإسلام ابن تيمية فقال: «وأما ما ذَكَرَه عن أحمد فقد أنكره أصحاب أحمد، حتى قال أبو البقاء العكبري لمن قرأ عليه كتاب البرهان: «هذا النقل ليس بصحيح عن مذهب الإمام أحمد».

وهو كما قال، فإن أحمد لم ينه عن نظرٍ في دليل عقلي صحيح يفضي إلى المطلوب، بل في كلامه في أصول الدين في الرد على الجهمية وغيرهم من الاحتجاج بالأدلة العقلية على فساد قول المخالفين للسنة ما هو معروف في كتبه وعند أصحابه، ولكن أحمد ذم من الكلام البدعي ما ذمه سائر الأمة، وهو الكلام المخالف للكتاب والسنة، والكلام في الله ودينه بغيره علم.

واستدل أحمد بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وأحمد أشهر وأكثر كلاماً في أصول الدين بالأدلة القطعية: نقلها وعقلها من سائر الأئمة، لأنه ابتلي بمخالفي السنة، فاحتاج إلى ذلك، والموجود في كلامه، من الاحتجاج بالأدلة العقلية على ما يوافق السنة، لم يوجد مثله في كلام سائر الأئمة»

ثم قال: «والمقصود أن أحمد يستدل بالأدلة العقلية على المطالب الإلهية إذا كانت صحيحة، إنما يذم ما يخالف الكتاب والسنة، أو الكلام بلا علم،

(١) البرهان في أصول الفقه، لأبي المعالي الجويني (٢/٤٩١).

والكلام المبتدع في الدين، كقوله في رسالته إلى المتوكل: (لا أحب الكلام في هذا إلا ما كان في كتاب الله أو حديث عن الرسول ﷺ، أو الصحابة أو التابعين، فأما غير ذلك فإن الكلام فيه غير محمود)[١].

وهو لا يكره ـ إذا عرف معاني الكتاب والسنة ـ أن يعبر عنها بعبارات أخرى إذا احتيج إلى ذلك، بل هو قد فعل ذلك، بل يكره المعاني المبتدعة في هذا، أي فيما خاض الناس فيه ـ من الكلام في القرآن والرؤية والقدر والصفات ـ غلا بما يوافق الكتاب والسنة وآثار الصحابة والتابعين»[٢].

وقال القاضي أبو يعلى ﷺ: «وقد احتج أحمد ﷺ بدلائل العقول في مواضع، فيما خرجه في الرد على الزنادقة والجهمية، رواية عبد الله عنه..» ثم ساق أمثلة، ثم قال: «وهذا صريح من أحمد ﷺ في الاحتجاج بدلائل العقول، وإلى هذا ذهب جماعة الفقهاء والمتكلمين من أهل الإثبات»[٣]

وقال ابن حمدان الحنبلي ﷺ: «وعلم الكلام المذموم هو أصول الدين إذا تكلم فيه بالمعقول المحض أو المخالف للمنقول الصريح فإن تكلم فيه بالنقل فقط أو بالنقل والعقل الموافق له فهو أصول الدين»[٤]

وقد مثّل شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ على ذلك بالاستدلال بالحركة

(١) انظر: مناقب الإمام أحمد، لابن الجوزي (ص ١٥٨).
(٢) درء تعارض العقل والنقل (٧/١٥٣ ـ ١٥٥).
(٣) العدة في أصول الفقه، للقاضي أبي يعلى (٤/١٢٧٥)، وانظر: شرح الكوكب المنير، لابن النجار (٤/٥٣٥).
(٤) صفة المفتي والمستفتي، لابن حمدان (ص ٥٠).

والسكون على حدوث المتحرك الساكن، بل الاستدلال بالأعراض مطلقاً على حدوث ما قامت به من الجواهر والأجسام، والاستدلال بحدوث الصفات على حدوث ما قامت به من الموصوفات، والاستدلال بتركيب الأجسام من الجواهر، ونحو ذلك[1].

وقال أبو الحسن الأشعري ﵀ ـ منتقداً استدلال المتكلمين بالدلائل الفاسدة ـ: «وكان ما يستدل به من أخباره على ذلك أوضح دلالة من دلالة الأعراض التي اعتمد على الاستدلال بها الفلاسفة ومن اتبعها من القدرية وأهل البدع المنحرفين عن الرسل ﷺ من قبل أن الأعراض لا يصح الاستدلال بها إلا بعد رتب كثيرة يطول الخلاف فيها ويدق الكلام عليها فمنها ما يحتاج إليه في الاستدلال على وجودها والمعرفة بفساد شبه المنكرين لها..» ثم أسهب في بيان تعقيدها وفسادها.

ثم قال: «وليس يحتاج أرشدكم الله في الاستدلال بخبر الرسول على ما ذكرناه من المعرفة بالأمر الغائب عن حواسنا إلى مثل ذلك، لأن آياته والأدلة الدالة على صدقه محسوسة مشاهدة قد أزعجت القلوب وبعثت الخواطر على النظر في صحة ما يدعو إليه وتأمل ما استشهد به على صدقه والمعرفة بأن آياته من قبل الله تدرك بيسير الفكر فيها وانها لا يصح أن تكون من البشر لوضوح الطرق إلى ذلك»[2].

❊ ❊ ❊

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل (١٤٣/٧).

(٢) رسالة إلى أهل الثغر (ص ١٦٣ ـ ١٦٦).

❊ فائدة: ما الحكمة من أن حجج الحق ليست كلها يقينية ؟

الجواب: قال الشيخ عبد الرحمن المعلمي ﷺ: «قد يتراءى للناظر أنه لو كانت حجج الحقِّ كلُّها بحيث يَعْرِفُ يقينًا مَنْ وَصَلَ إليها أنه قد وصل ، ويَعْرِفُ يقينًا مَنْ لم يصل إليها أنه لم يصل ، لكان أولى .

قلت: حاصلُ هذا أن تكون حجج الحقِّ كلها يقينيَّةً ، لا تشتبه على أحد .

فالجواب: أنه مَنَعَ مِنْ ذلك موانعُ ، نكتفي هنا بذكر واحدٍ منها ، وهو أنه قد سبق أن هذه الدار مبنيَّة على الابتلاء ، وقال الله ﷻ: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢] . فكلُّ ما يجري من الإنسان في هذه الدار تَصَرُّفٌ في الأمانة ، ولا يتمُّ الابتلاء إلا بأن يُمَكَّنَ من الخيانة ، والخيانةُ لها درجات كثيرة ، فلا بدَّ أن يكون الابتلاء بحيث يتناول الدرجات كلَّها»[(١)] .

وقال علاء الدين البخاري ﷺ: «فإن الكل لو كان ظاهرا جليا بطل معنى الامتحان ونيل الثواب بالجهد في الطلب ولو كان الكل مشكلا خفيا لم يعلم شيء حقيقة فجعل بعضها جليًا ظاهرًا وبعضها خفيًا ليتوسل بالجلي إلى معرفة الخفي بالاجتهاد وإتعاب النفس وإعمال الفكر فيتبين المجد من المقصر والمجتهد من المفرط فيكون ثوابهم بقدر اجتهادهم ومراتبهم على قدر علومهم فيظهر فضيلة الراسخين في العلم لحاجة الناس إلى الرجوع إليهم والاقتداء بهم ولولا ذلك لاستوت الأقدام ولم يتميز الخاص من العام ولذهب التفاوت بين

(١) رفع الاشتباه عن معنى العبادة والإله ، للمعلمي (١/٦٦) .

الناس ولا يزال الناس بخير ما تفاوتوا، فإذا استووا هلكوا وقال الله تعالى، ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥]»[(١)].

❁ ❁ ❁

(١) كشف الأسرار شرح أصول البزدوي (١/٥٧)، وقد استفدتُ الدلالة على هذا النقل من كتاب: لماذا نحن هنا؟، لإسماعيل عرفة، (ص ١٣٩).

المقدمة الرابعة

دراسة مختصرة حول رسالة «البراهين العقلية» وعملي فيها

أصل الرسالة:

ذُكر في مقدمة رسالة «**البراهين العقلية على وحدانية الربِ ووجوه كماله**» أنها مُحاضرة، ولا يظهر أنه سبق قلم، فيحتمل أن يكون قد كتبها الشيخ ليلقيها في محاضرة، ويحتمل أن يكون أصلها محاضرة، ثم حرَّرها الشيخ بعد ذلك، أو فرّغها عنه أحدُهم، ثم طُبعت بعد ذلك، والله أعلم.

مزايا الرسالة:

خُصّت هذه الرسالة بعدة مزايا، منها:

١ ـ أنها مفردة في موضوع إثبات وجود الله تعالى، ومسائل توحيد الربوبية بشكل عام، مع تطرّق لبعض مسائل إثبات النبوة.

٢ ـ استند الشيخ فيها في بنائه الاستدلالي على الأدلة العقلية، حيث قال في المقدمة: «ولكننا نُريدُ في هذه المحاضرةَ أن نُشيرَ إشارةً يسيرةً إلى براهينها العقلية التي يشتركُ في معرفتها والخضوعِ لها جميعُ العُقلاءِ من البشر» مما جعلها موجهة للجميع، ويستفيد منها الكافر، ويزداد بها إيمان المؤمن.

٣ ـ مزج الشيخ بين الأدلة الشرعية والعقلية مثبتًا بذلك عدم التنافر بينهما.

٤ ـ لغة الرسالة واضحة سلسة خالية من التعقيد، كعادة الشيخ ﷾ في مؤلفاته وكتبه، فرغم خطورة المسائل وأهميته إلا أن الشيخ ذلّل للقارئين فهمها بلطيف أسلوبه.

❁ مضامين الرسالة:

المضمون الرئيس للرسالة كما هو ظاهر من عنوانها إثبات توحيد الربوبية ووجود الله تعالىٰ وما يتعلق بذلك، وقد نوّع الشيخ الدلائل والبراهين، ولكن يُمكن إرجاع كلامه إلىٰ أربعة براهين أساسية:

البرهان الأول: برهان الخَلق والحدوث.

البرهان الثاني: برهان الإتقان والعناية.

البرهان الثالث: آيات الأنبياء ومعجزاتهم.

البرهان الرابع: الفطرة.

وجميع ما ذكره الشيخ في هذه الرسالة يرجع بشكل أو بآخر إلىٰ أحد هذه البراهين، فاستدلاله بمحاسن الشريعة وكمالات الأنبياء وإخبارهم عن المغيبات والتحدّي بالقرآن ونحو ذلك يرجع إلىٰ برهان آيات الأنبياء.

واستدلاله برحمة الله تعالىٰ واستجابته لدعوات المضطرين داخل في برهان الإتقان والعناية، وهكذا.

❁ فكرة كتاب إشراق وعملي فيه:

يسّر الله تعالىٰ لي قراءة رسالة «**البراهين العقلية علىٰ وحدانية الربِ ووجوه**

كماله» والتعليق عليها كاملةً في يوم علمي في مسجد القاضي في منطقة حولي، يوم الجمعة الخامس من صفر عام ١٤٤٠ هـ الموافق ٢٠١٩/١٠/٤ م

وقد حرصتُ في التعليق على تتميم بعض المواضع بما يوضح معانيها ويجليها، ثم قام بعض الأخوة مشكورين بتفريغ هذه التعليقات، ثم أعدتُ النظر فيها تدقيقًا وتحريرًا، ثم تدارستُها مع بعض الأخوة واستفدتُ من تعليقاتهم وإضافاتهم.

ثم رأيتُ أن أُحقق الرسالة على أصلها الخطّي فتواصلتُ مع الأخ الفاضل الشيخ مساعد بن عبد الله السعدي ـ سبط الشيخ ﵀ ـ فسارَع بإرساله لي مأجورًا مشكورًا.

وهذا الأصل نُسخ سنة ١٣٧٠ هـ وجاء في آخره بخط المصنّف ﵀: «**بخط عبد الله السليمان السلمان ٢٠ جمادى ١٣٧٠، قال ذلك الفقير إلى الله عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين**»

ويتلخّص عملي في الآتي:

١ ـ قابلتُ الرسالةَ على أصلها الخطّي.

٢ ـ قابلتها كذلك على مطبوعة دار ابن الجوزي المنشورة في شوال ١٤٢٩هـ بتحقيق باسل بن سعود الرشود، ووجدتُ بعض الفروقات وأثبتّها في الحاشية مشيرًا لها بالحرف (ط).

٣ ـ وضعتُ بعض العناوين الجانبية لتوضيح فقرات الرسالة.

٤ ـ أثبتُّ حاشيةً على الرسالة توضح معانيها، وتُتمّم فوائدها.

٥ ـ قدمتُ بين يدي الرسالة بمقدمات سبق بيانها.

وقد سمّيت هذا العمل بـ: «**إشراق على كتاب البراهين العقلية**».

فأسأل الله ﷻ أن ينفع به ويبارك فيه

صورة المخطوط

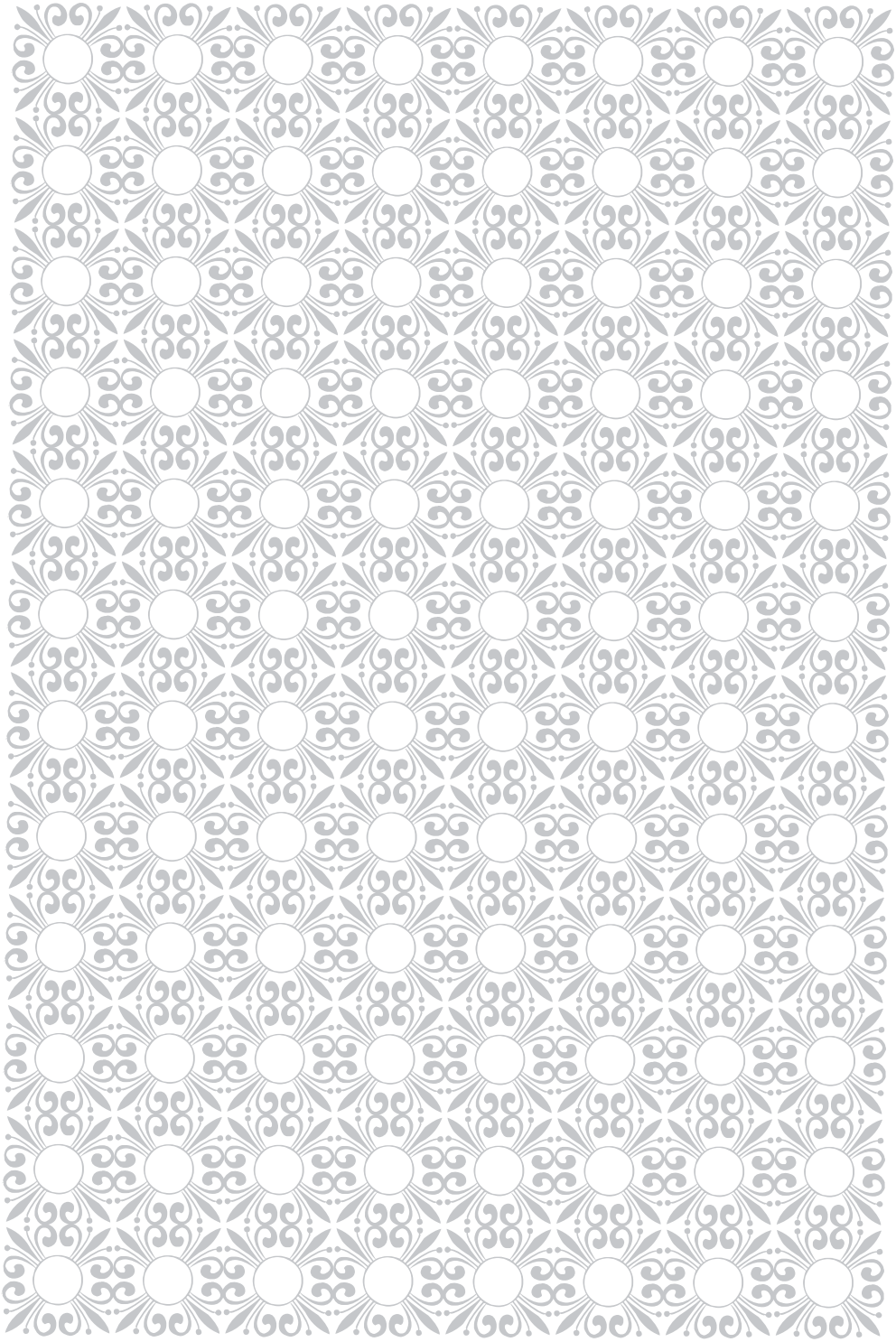

طبع عمرة في مكتبة سعد الدين — ١ — لم يطبع صفحاتها ٢٦

بسم الله الرحمن الرحيم — الحمد لله وصلى الله على محمد وسلم

هذه محاضرة عظيمة محتوية على التنبيه الواضح الى البراهين العقلية على وحدانية الرب ووجود كماله

اعلم ان هذه المسألة اعظم المسائل على الإطلاق واكبرها واوجبها وانفعها واوضحها وعليها اتفقت جميع الكتب المنزلة من الله على رسله وجميع الرسل وهي اهم ما دعا اليه الرسل اممهم: فكل رسول يقول لقومه - اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ويذكرون لأممهم من اسماء الرب واوصافه وفعله وآلائه والطائفة ما به يعرفون ربهم ويخضعون له ويعبدونه والقرآن يطفح من اوله الى آخره ببيان هذه المسألة ويذكر الله البراهين المتنوعة ويصرف الآيات والسنة كذلك وليس المقصود في هذه المحاضرة ذكر الأدلة النقلية عليها فان الكتاب والسنة فيهما من البراهين والأدلة على ذلك ما لا يحصى ولا يمكن استيفاء بعضه وهي واضحة جلية يعرفها الخواص والعوام وبعض ذلك كاف وافٍ بالمقصود ولكننا نريد في هذه المحاضرة ان نشير اشارة يسيرة الى البراهين العقلية التي يشترك في معرفتها والخضوع لها جميع العقلاء من البشر ولا ينكرها الا كل مكابر مستكبر نابذ للعقل والدين وهذه المسألة اوضح واظهر من ان يحتج لها وتذكر لبعضها ولكن كلما عرف المؤمن براهين قوى ايمانه وازداد يقينه وحمد الله على هذه النعمة التي هي اكبر النعم واجلها ولهذا قالت الرسل لأممهم: افي الله شك فاطر السموات والأرض فإنه ركز في قلوب جميع العقلاء الإعتراف بربوبيته ووحدانيته فنقول وبالله التوفيق -

اعلم رحمك الله انك اذا نظرت الى العالم العلوي والسفلي وما أودع فيه من المخلوقات المتنوعة الكثيرة جدا والحوادث المتجددة في كل وقت وتأملته تأملا صحيحا عرفت ان للأمور لا تخلو من احد امور ثلاثة

احدها أن توجد هذه المخلوقات والحوادث بنفسها من غير محدث ولا خالق وهذا محال ممتنع يجزم العقل ضرورة ببطلانه ويعلم يقينا ان من قال ذلك فهو الى الجنون اقرب منه الى العقل لأن كل من له عقل يعرف انه لا يمكن ان يوجد شيء من غير موجد ولا محدث الثاني أن تكون هذه المخلوقات محدثة وخالقة لنفسها وهذا الذي قال

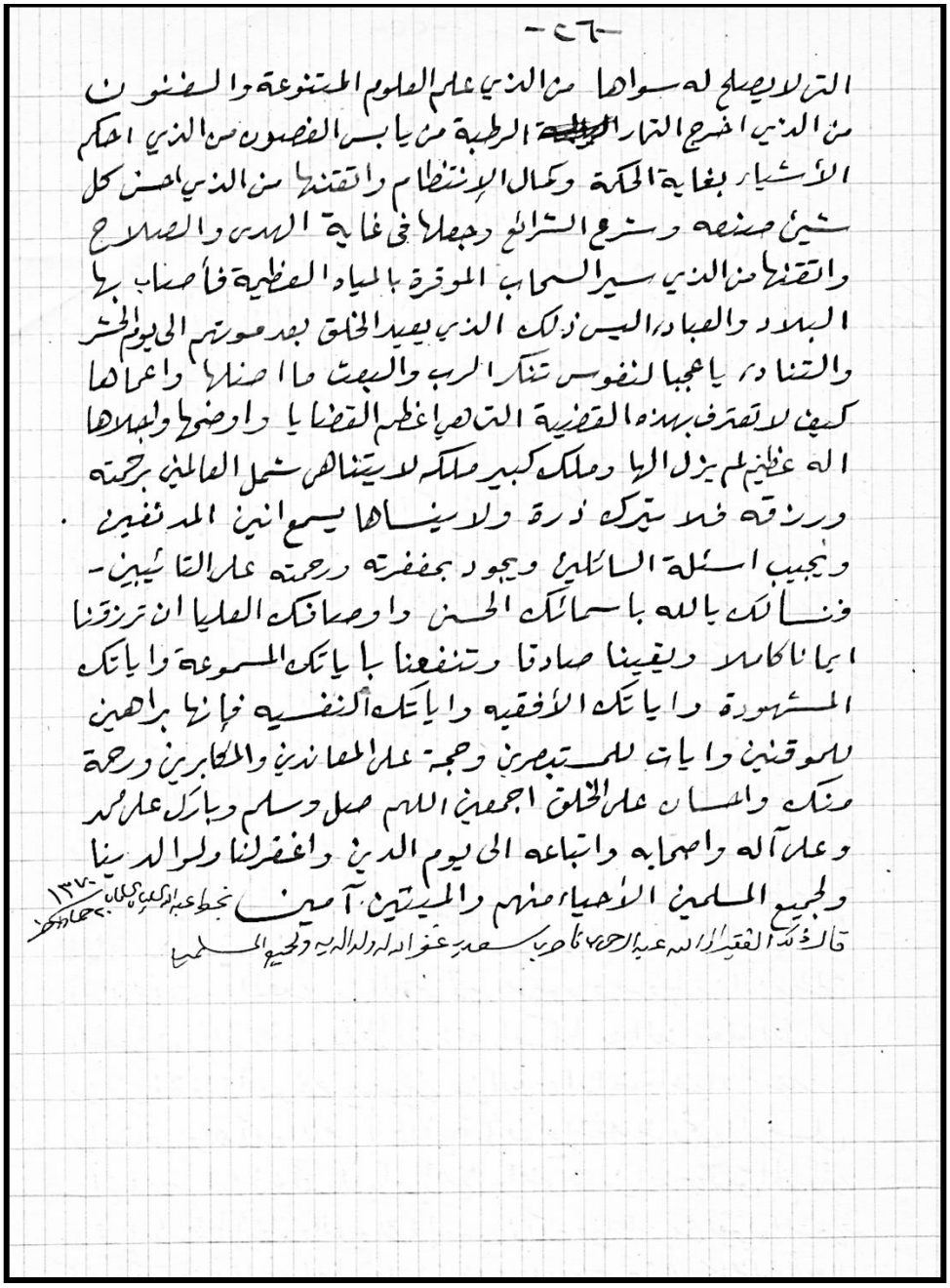

صورة الورقة الأخيرة من المخطوط

إشْرَاق

على كتابِ البَراهِينِ العَقْلِيّةِ على وَحْدَانِيّةِ الرَّبِّ وَوُجُوهِ كَمالِه

للعلامة الشيخ

عبد الرَّحمن بن نَاصِر السِّعْدِي

رحمه الله رحمةً واسعة، المتوفى سنة (١٣٧٦هـ)

حقّق المتن وقدّم له وعلّق الحاشية

د. مطلق بن جاسر بن مطلق الجاسر

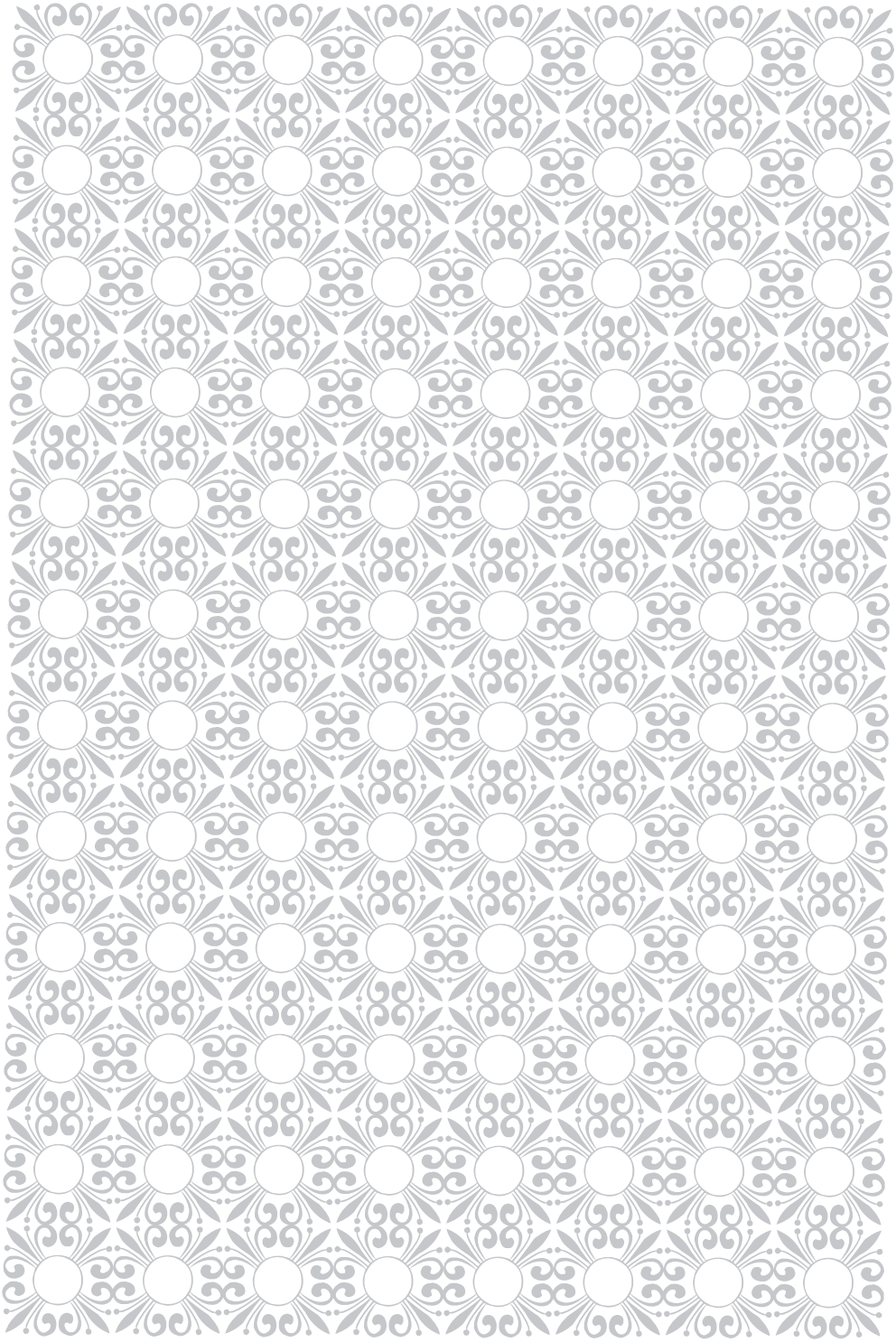

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وصلىٰ الله علىٰ محمدٍ وسلم.

هذه محاضرةٌ عظيمة[١]، محتوية علىٰ التنبيه الواضح إلىٰ البراهين العقلية علىٰ وحدانية الرب ووجوه كماله.

اعلم أن هذه المسألةَ أعظمُ المسائل على الإطلاق[٣]، وأكبرُها وأوجبُها وأنفعُها وأوضحُها، وعليها اتفقت جميعُ الكتب المنزلة من اللهِ علىٰ رُسُلِهِ، وجميعُ الرُسُل.

وهي أهمُّ ما دعا إليه الرُسُلُ أُمَمَهم، فكلُّ رسولٍ يقولُ لقومه: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٥٩]، ويذكرون لأُمَمِهم من أسماءِ الربِ وأوصافهِ ونعمهِ وآلائهِ وألطافهِ ما به يعرفونَ ربهم ويخضعونَ له ويعبدونه.

الشَرح

(١) ذكر الشيخ رحمه الله هنا أن هذه الرسالة **مُحاضرة**، ويحتمل أن يكون قد كتبها الشيخ ليلقيها في محاضرة، ويحتمل أن يكون أصلها محاضرة، ثم حرَّرها الشيخ بعد ذلك، أو فرّغها عنه أحدهم، ثم طُبعت بعد ذلك.

(٣) لاشك أن هذه المسألة أعظم المسائل علىٰ الإطلاق؛ وذلك لأن العلم يشرفُ بشرفِ مُتعلّقه، فإذا كان مُتعلّقُهُ إثباتُ وجود الله وإثباتُ وحدانيتهِ وإثباتُ ربوبيتهِ وألوهيته، فلا غرابة أن يكون أعظم العلوم وأشرفها.

والقُرآنُ العظيم من أولهِ إلىٰ آخرهِ يُبيّنُ هذه المسألةَ ويذكرُ لها البراهينَ المتنوعة، ويصرِّفُ لها الآيات، والسُّنَّةُ كذلك.

وليس القصدُ في هذه المحاضرة ذكرُ الأدلة النقليةِ عليها؛ فإن الكتابَ والسُّنَّةَ فيهما من البراهين والأدلة علىٰ ذلك ما لا يُعدُّ ولا يُحصىٰ، ولا يمكن استيفاءُ بعضه، وهي واضحةٌ جليةٌ؛ يعرفها الخواصُ والعوام، وبعضُ ذلك كافٍ وافٍ بالمقصود.

ولكننا نُريدُ في هذه المحاضرةَ أن نُشيرَ إشارةً يسيرةً إلىٰ براهينها العقلية التي يشتركُ في معرفتها والخضوعِ لها جميعُ العُقلاءِ من البشر(١)، ولا يُنكرُها

الشَّرح

(١) بين الشيخ رحمه الله منهجه في هذه الرسالة، وهو الاستدلال بالأدلةِ العقلية، والعناية بها أكثر من الأدلة النقلية والتي هي القُرآن والسُّنَّة، وبيّن سبب ذلك، وهو اشتراك جميع البشر في الخضوع لهذه الأدلة، بخلاف الأدلة النقلية التي لا يؤمنُ بها إلا المُسلمون، وهذه لفتة مهمة من الشيخ، ينبغي علىٰ الدُعاةِ إلىٰ اللهِ تعالىٰ العناية بها، وهي مخاطبة كُلِّ قومٍ بما يفهمونه وبما يناسب عقولهم.

ويجب هنا أن ننبه إلىٰ مسألة هامة جداً، وهي أن ديننا لا يُناقض العقل ألبتة، بل إن الأدلةَ النقليةَ نفسها ـ وهي القُرآن والسُّنَّة ـ مُتضمنة للأدلة العقلية، يعني أن الآيات في كتاب الله وفي سُنّة النبي ﷺ قد تضمنت الأدلة العقلية، وقد فَصّلَ ذلكَ شيخُ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كثير من كتبه لا سيما كتابهِ العظيم الفذ «درء تعارض العقل والنقل».

إلا كُلُّ مكابرٍ مُستكبر، منابذٍ للعقلِ والدين.

وهذه المسألةُ أوضحُ وأظهرُ من أن يُحتجَّ لها وتذكرَ براهينُها، ولكن كلما عرف المؤمنُ براهينَها قوي إيمانه، وازداد يقينهُ، وحمد الله على هذه النعمة التي هي أكبرُ النعمِ وأجلُّها(١).

ولهذا قالت الرُسُلُ لأُمَمِهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠]، فاستفهموهم استفهامَ تقرير، فإنه متقررٌ في قلوبِ جميع العُقلاءِ الاعترافُ بربوبيتهِ ووحدانيته.

الشَّرح

(١) صحيح، فالمشكلة ليست في وضوح المسألة، وإنما في كون العقل أو الفطرة قد أصابهما من الفساد ما يمنع الانتفاع بهما، فالشمس لا يُنكر وجودها أحد، فإذا رأيتَ من يُنكر وجودها، فاعلم أن المشكلة ليست في الشمس، وإنما المشكلة في عين هذا المنكِر، فكان لزامًا علينا علاج عينه ليتمكن من رؤية الشمس.

فمقصود الشيخ رحمه الله أننا إذا استدللنا على وجود اللهِ تعالى بأدلةٍ عقلية، لا يعني أننا في شك، أو أن هذه القضية غامضة، لا، فالقضية واضحة ولسنا في شك بحمد الله، وإنما المقصود أمران:

١ ـ مخاطبة من لا يؤمن بالقُرآن والسُنّة من الكفار.

٢ ـ وزيادة يقين المؤمنين بهما، فالمؤمن إذا وجدَ الأدلةَ العقلية تَعْضدُ وتُؤيِّدُ مَا يؤمنُ بهِ، فلا شك أن إيمانه سيزيد، وهذا هو منهج الأنبياء كما سأل إبراهيم عليه السلام ربهُ تعالى، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، فلم ينهه ربه تعالى عن ذلك.

[البرهان الأول: بُرهان الخَلق والحدوث]

فنقول وبالله التوفيق: اعلم رحمك الله أنك إذا نظرتَ إلىٰ العالم العلوي والسفلي وما أُودع فيه من المخلوقات المتنوعة الكثيرة جدًا، والحوادث المتجددة في كل وقتٍ، وتأملتَه تأملًا صحيحًا، عرفتَ أن الأمورَ الممكنُ تقسيمُها في العقل ثلاثة:

أحدُها: أن توجدَ هذه المخلوقات والحوادثُ بنفسها من غير محدِث ولا خالِق، فهذا محالٌ ممتنعٌ؛ يجزم العقل ضرورةً ببطلانه، ويُعلم يقينًا أن من ظن ذلك فهو إلىٰ الجنون أقرب منه إلىٰ العقل؛ لأن كل مَن له عقل يعرف أنه لا يمكن أن يوجَد شيءٍ من غير موجِد، ولا مُحدِث.

الثاني: أن تكون هذه المخلوقات محدِثةً وخالقةً لنفسِها[١]، فهذا أيضًا محالٌ ممتنعٌ؛ يجزم العقل ضرورةً ببطلانه وامتناعه، فكل من له أدنىٰ عقل يجزمُ أن الشيء لا يُحدِثُ نفسه، كما أنه لا يحدُثُ بلا مُحدِث.

وإذا بطل هذان القسمانِ عقلًا وفطرةً تعيَّن **القسمُ الثالث**: وهو أن هذه المخلوقات والحوادث لها خالِقٌ خلقها، ومحدِثٌ أحدثها، وهو الله الربُ العظيم، الخالق لكل شيءٍ، المتصرف في كل شيءٍ، المدبر للأمور كلها(١).

الشَّرح

(١) هذا البرهان العقلي الأول علىٰ وجود اللهِ **ويسمىٰ برهان الخلق والحدوث**،=

[١] في (ط): نفسها.

. . . . . .

الشَّرْح

= وقد ذكر الشيخ الشق الثاني منه ؛ لذلك أسوق البرهان من بدايته فأقول:

يتكون هذا البرهان من مقدمتين ، مقدمة صغرىٰ ، ومقدمة كبرىٰ ، ونتيجة:

١ ـ المقدمة الصغرىٰ: الكون الذي نعيش فيه حادث ، يعني أنه كان عدمًا ثم وُجد.

وهذه المقدمة واضحة لكل ذي عينين ، ويُدركها كل عاقل ولا تحتاج إلىٰ إثبات ، لذلك «كانت الطريقة المذكورة في القرآن هي الاستدلال بحدوث الإنسان وغيره من المحدثات المعلوم حدوثها بالمشاهدة ونحوها علىٰ وجود الخالق سبحانه وتعالىٰ ، فحدوث الإنسان يُستدل به علىٰ المُحْدِث ، لا يحتاج أن يُستدل علىٰ حدوثه بمقارنة التغير أو الحوادث له ووجوب تناهي الحوادث ، والفرق بين الاستدلال بحدوثه والاستدلال علىٰ حدوثه بيِّن ، والذي في القرآن هو الأول ولا الثاني»[١].

ولكن رغم ظهور هذه المقدمة إلا أنها كانت محل جدل بين الفلاسفة والمتكلمين وغيرهم قديمًا ، فقد ذهبَ بعضُ الفلاسفة إلىٰ أن الكون قديم غير حادث ؛ ولذلك كفّرهم العلماء.

أما في هذا العصر فقد أصبحت محل إجماعٍ تقريبًا ، فلا يكاد يوجد من يشك في هذه الحقيقة ؛ لأنها أصبحت مُثبتةً بالعلم التجريبي الحديث ، فخرجت من ميدان الفلسفة ودخلت في ميدان العلم التجريبي وثبتت علميًا[٢] ،=

[١] درء تعارض العقل والنقل ، لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢١٩/٧).

[٢] انظر: الإيمان بالخالق والعلم ، لجوردن ليدنر (ص٧٦).

. . . . . .

الشَّرح

= ويدل على ذلك أمور، منها:

❊ **الأول:** الاكتشاف الكبير الذي توصل إليه العالم الفلكي الأمريكي أدوين هابل عام ١٩٢٩م والذي أحدث تغييرًا كبيرًا في علوم الفضاء، وبسبب هذا الاكتشاف سُمي منظار (ناسا) الشهير فيما بعد باسم (هابل) نسبة إلى هذا العالم.

فبينما كان أدوين هابل يراقب النجوم بمنظار اكتشف أن لون الطيف الصادر من هذا النجم يتحول إلى اللون الأحمر، ومعنى هذا حسب نظريات علم الفيزياء الفلكية astrophysics أنه عندما ينقلب لون الطيف الصادر من جسم سماوي (سوبر نوفا) إلى الأشعة الحمراء فإن هذا يعني أن النجم يبتعد عن الأرض، وأما إذا كان هذا النجم يقترب من الأرض فإن الطيف يظهر اللون الأزرق، وكان هذا أول اكتشاف لهابل من ناحية حركة النجوم.

وتابع هابل أبحاثه، فاكتشف أن النجوم لا تبتعد عن الأرض فحسب، بل يبتعد بعضها عن بعض بما يشبه البالون عند نفخه، أي أنك إذا رسمت نقاطا على البالون ثم نفخته تجد أن النقاط المنتشرة على سطح يبتعد بعضها عن بعض بما يجعلنا نتصور أن الكون كله يشبه ذلك البالون، وهذا يدل على أن هذا الكون في تمدد دائم كل ثانية.

توصل أدوين هابل بعد ذلك إلى أن الكون يتمدد باستمرار وبسرعة متزايدة، =

. . . . . .

الشَّرح

= واكتشف أيضاً أن المجرات التي ولدت تبتعد عن مركز الانفجار الأول، وكذلك تبتعد عن بعضها البعض[١].

وقد جاء في القرآن الكريم ما قد يدل على ذلك، وهو قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧][٢].

ومعنى أن الكون يتمدد أنه كلما رجعت بالزمن إلى الماضي فإن الكون يكون أصغر، حتى يصل الكون إلى نقطة قطرها صفر، وهذا يعني أن الكون كان عدمًا.

وثبتت هذه الحقيقة ولم يعد يُجادل فيها أحد الآن، حتى إن المُلحد الشهير ستيفن هوكينج، وهو من أشهر ملاحدة هذا العصر قال: «اكتشاف أن الكون يتمدد هو إحدى الثورات الفكرية العظيمة في القرن العشرين»[٣]، وقال أيضًا: «فالأحداث قبل الانفجار الكبير لا يمكن أن تكون لها نتائج، وهكذا فإنه ينبغي ألا تشكّل جزءًا من أي نموذج علمي عن الكون، وإذن ينبغي أن نحذفها من النموذج ونقول: **إن الزمان له بداية عند الانفجار الكبير**»[٤].

❊ الثاني: القانون الثاني للديناميكا الحرارية، هذا القانون يثبت أنه لا يمكن=

[١] انظر: بنية الاكتشاف العلمي، للدكتور سائر بصمه جي (ص٣٥).
[٢] انظر: من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، للدكتور حسن أبو العينين (ص١٦٤).
[٣] تاريخ موجز للزمان، لستيفن هوكنج (ص ٧٩).
[٤] تاريخ موجز للزمان، لستيفن هوكنج (ص ٩١).

. . . . . .

الشَّرْح

= أن يكون وجود الكون قديمًا لا بداية له، فهو يصف لنا أن الحرارة تنتقل دائماً من الجسم الأكثر حرارة إلىٰ الجسم الأقل حرارة، والعكس غير ممكن، وبناء علىٰ هذا الكشف العلمي فإن اتجاه الكون نحو التوازن الحراري يزداد يوماً بعد يوم، ولا بد إذن من وقت تتساوىٰ فيه حرارة جميع الموجودات، وحينذاك لا تبقىٰ أية طاقة مفيدة للحياة والعمل، وسيترتب علىٰ ذلك أن تنتهي العمليات الكيماوية والطبيعية.

وانطلاقاً من هذه الحقيقة القائلة بأن العمليات الكيماوية والطبيعية جارية، وأن الحياة قائمة، يثبت لدينا قطعًا أن الكون له بداية، إذ لو لم يكن له بداية من اللازم أن يفقد طاقته منذ زمن بعيد، بناء علىٰ هذا القانون، ولما بقي في الكون بصيص من الحياة.

يقول إدوارد لوثر كسيل وهو ـ أستاذ علم الأحياء في جامعة سان فرانسيسكو ـ: «قد يعتقد بعضهم أن هذا الكون هو خالق نفسه، علىٰ حين يرىٰ البعض الآخر أن الاعتقاد في أزلية هذا الكون ليس بأصعب من الاعتقاد في وجود إلهٍ أزلي.

ولكن القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية يثبت خطأ هذا الرأي الأخير، فالعلوم تثبت بكل وضوح أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزلياً، فهناك انتقال حراري مستمر من الأجسام الحارة إلىٰ الأجسام الباردة، ولا يمكن أن يحدث العكس بقوة ذاتية، بحيث تعود الحرارة فترتد من=

. . . . . .

الشَّرح

= الأجسام الباردة إلىٰ الأجسام الحارة.

ومعنىٰ ذلك أن الكون يتجه إلىٰ درجة تتساوىٰ فيها حرارة جميع الأجسام وينضب فيها معين الطاقة، ويومئذٍ لن تكون هنالك عمليات كيماوية أو طبيعية، ولن يكون هنالك أثر للحياة نفسها في هذا الكون.

ولما كانت الحياة لا تزال قائمة، ولا تزال العمليات الكيمياوية والطبيعية تسير في طريقها، فإننا نستطيع أن نستنتج أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزلياً، وإلا لاستهلكت طاقته منذ زمن بعيد، وتوقف كل نشاط في الوجود، وهكذا توصلت العلوم ـ دون قصد ـ إلىٰ أن لهذا الكون بداية، وهي بذلك تثبت وجود الله؛ لأن ما له بداية لا يمكن أن يكون قد بدأ نفسه ولا بد من مبدئ، أو من محرك أول، أو من خالق، هو الإله»[١].

ويقول عالِمُ الطبيعة البيولوجية فرانك آلن: «قوانين الديناميكا الحرارية تدل علىٰ أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجياً، وأنها سائرة حتماً إلىٰ يوم تصير فيه جميع الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض هي الصفر المطلق، يومئذٍ تنعدم الطاقة، وتستحيل الحياة، ولا مناص من حدوث هذه الحالة من انعدامٍ الطاقات، عندما تصل درجة حرارة الأجسام إلىٰ الصفر المطلق بمضي الوقت»[٢]. =

[١] ورقة بحثية بعنوان: فلننظر إلىٰ الحقائق دون ملل أو تحيّز، لإدوارد لوثر كسيل، ضمن كتاب: الله يتجلىٰ في عصر العلم، تحرير: جون كلوفر (ص٣٢).

[٢] ورقة بحثية بعنوان: نشأة العالم هل هو مصادفة أو قصد؟ لفرانك ألن، ضمن كتاب: الله يتجلىٰ=

. . . . . .

الشَّرح

= يقول أنتوني فلو ـ وكان من أشهر ملاحدة القرن العشرين ـ: «على الملحدين أن يشعروا بالإحباط من الإحصاءات الكونية الحديثة، حيث بدا أن علماء الكونيات يقدمون الدليل العلمي على ما قاله القديس توما الأكويني من أنه يصعب على الفلسفة إثباته يعني أن للكون بداية»[١].

٢ ـ المقدمة الكبرى: وهي أن كُل حادث لابد له من مُحدث.

يعني إذا كان الشيءُ معدومًا ثم وجد، فضرورة العقل تدلنا على أن هذا الحادث لابد له من مُحدث، وهذه الحقيقة مبنية على قانون السببية، وهو من الضروريات العقلية، التي لا يُنكرُها إلا مجنون أو مُكابر، بل حتى الطفل الصغير إذا ضربته من خلفه فإنه سيلتفت ليبحث عن الذي ضربه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ: «ومعلوم بالفطرة التي فطر الله عليها عباده بصريح العقل أن الحادث لا يحدث إلا بمُحدِث أحدثه، وإن حدوث الحادث بلا محدث أحدثه معلوم البطلان بضرورة العقل، وهذا أمر مركوز في بني آدم، حتى الصبيان لو ضُرب الصبي ضربة فقال: من ضربني؟ فقيل: ما ضربك أحد، لم يصدق عقله أن الضربة حدثت من غير فاعل.

ولهذا لو جوَّزَ مُجوِّزٌ أنْ يُحدَثَ كتابةٌ أو بناءٌ أو غراسٌ ونحوُ ذلكَ من غير مُحدِثٍ لذلك لكان عند العقلاء إما مجنونًا وإما مسفسطًا، كالمنكر للعلوم=

= في عصر العلم (ص١٢).

[١] كتاب: هناك إله، لأنتوني فلو، ترجمة: صلاح الفضلي (ص١٦١).

. . . . . .

الشَّرح

= البديهية والمعارف الضرورية، وكذلك معلوم أنه لم يحدث نفسه، فإن كان معدوماً قبل حدوثه لم يكن شيئا، فيمتنع أن يحدث غيره فضلاً عن أن يحدث نفسه»[١].

وقال ﷺ: «وقد عُلِم بالاضطرار أن الوجود لا بد له من موجد، واجب بذاته، غني عمّا سواه قديم أزلي، لا يجوز عليه الحدوث ولا العدم»[٢].

وهذه المقدمة من الوضوح بحيث لا حاجة للتطويل في الاستدلال لها كما يفعله المتكلمون، قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ: «ثم إن افتقار الممكن إلىٰ الواجب، والمحدث إلىٰ القديم، والمصنوع إلىٰ الصانع، مقدمة ضرورية؛ وإن كان طائفة من النُظَّار يستدلون علىٰ هذه المقدمة، وعلىٰ أن الممكن لا يترجح أحد طرفيه علىٰ الآخر إلا بمرجح، والجمهور علىٰ الاكتفاء بالضرورة فيهما»[٣].

إذا تقرر ما سبق، يأتي السؤال الثاني الذي أجاب عنه المؤلف، وهو: مَن الذي خلقَ هذا الكون؟ ومن الذي أوجدهُ؟.

ذكر الشيخ هنا ثلاثة احتمالات لا رابع لها، وهي:

الأول: أنها وُجدت دونَ مُوجدٍ وخالق. =

[١] الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لشيخ الإسلام ابن تيمية (٤/١٤٥).

[٢] العقيدة التدمرية، لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص ١٦ ـ ١٧).

[٣] مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية (٢/٧٦).

. . . . . .

الشَّرح

= **الثاني:** أن تكونَ هي التي أوجدت نفسها بنفسها، أو أوجدها مخلوق مثلها.

الثالث: أن يخلقها ويوجدها كائن غير مخلوق.

أما الاحتمال الأول: فيردهُ العقل مُباشرةً، فهو باطل بالضرورة العقلية؛ لأن قانون السببية يمنع ذلك كما سبق.

أما الاحتمال الثاني: فهو باطل أيضًا؛ لأنه يستلزم التسلسل، والتسلسل: «هو توقف وجود الشيء على وجود أشياء غير متناهية»[١]، وهو ممتنع.

ويتضح ذلك بهذا المثال:

جندي بيده سلاح يريد أن يطلق النار، ولكن حتى يطلق النار، يجب أن يستأذن من الجندي الذي خلفه، وهذا الجندي حتى يعطي الإذن يجب أن يستأذن من الجندي الذي خلفه، وهكذا إلى ما لا نهاية، والسؤال: هل سيطلق الجندي الأول النار؟ الجواب: لا؛ لأن الاستئذان سيستغرق مدة زمنية غير منتهية، ولهذا يستحيل أن يصل الإذن للجندي، ونعلم من ذلك أن التسلسل ممتنع، وإذا ما أُطلقت الطلقة، وحَدَث الحدث نعلم أن هناك جنديًا يأمر ولا ينتظر إذنًا من أحد. إذا تقرَّر ذلك علمنا بطلان احتمال أن يكون موجد المخلوقات مخلوقًا مثلها، لأن هذا يستلزم التسلسل، وهو ممتنع كما عرفنا.

فلم يبق لنا إلا أن نؤمن ونُسلم ونوقن **أن الذي أوجدَ هذا الكون هو**=

[١] شرح لقطة العجلان للزركشي، للشيخ زكريا الأنصاري (ص ٢٠٧).

. . . . . .

الشَّرح

= **خالقٌ غير مخلوق**، حتىٰ نسلم من إشكالية مخالفة مبدأ السببية إذا اخترنا الخيار الأول، ومن إشكالية التسلسل إذا اخترنا الخيار الثاني، فيبقىٰ هذا هو الخيار العقلي الوحيد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «قد علم بضرورة العقل أنه لا بد من موجود قديم غني عما سواه، إذ نحن نشاهد حدوث المحدثات، كالحيوان والمعدن والنبات، والحادث ممكن ليس بواجب ولا ممتنع، وقد علم بالاضطرار أن المحدَث لابد له من مُحدِث، والممكن لابد له من موجد، كما قال تعالىٰ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]، فإذا لم يكونوا خُلقوا من غير خالق، ولا هم الخالقون لأنفسهم، تعين أن لهم خالقًا خلقهم»[١].

وقال الإمام أبو سليمان الخطابي رحمه الله مبينًا طريقة السلف في إثبات وجود الله تعالىٰ وربوبيته: «وإلىٰ ذلك ما وجدوه في أنفسهم وفي سائر المصنوعات من آثار الصنعة، ودلائل الحكمة الشاهدة علىٰ أن لها صانعًا حكيمًا عالمًا خبيرًا تام القدرة بالغ الحكمة، وقد نبههم الكتاب عليه ودعاهم إلىٰ تدبره وتأمله والاستدلال به علىٰ ثبوت ربوبيته فقال: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات ٢١] إشارة إلىٰ ما فيها من آثار الصنعة ولطيف الحكمة الدالين علىٰ وجود الصانع الحكيم، لما ركب فيها من الحواس التي يقع عنها الإدراك والجوارح التي يتأثر بها القبض والبسط والأعضاء»[٢].

[١] العقيدة التدمرية، لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص ١٦ ـ ١٧).

[٢] الغنية عن الكلام وأهله، لأبي سليمان الخطابي (ص ٣٤٥).

ولهذا نبَّه الله على هذا التقسيم العقلي الواضح لكل عاقل، فقال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦](١).

الشَّرح

(١) قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «فتأمل هذا الترديد والحصر المتضمن لإقامة الحجة بأقرب طريق وأفصح عبارة، يقول تعالى هؤلاء مخلوقون بعد أن لم يكونوا، فهل خُلقوا من غير خالق خلقهم؟! فهذا من المحال الممتنع عند كل من له فهم وعقل أن يكون مصنوع من غير صانع ومخلوق من غير خالق.

ولو مر رجل بأرض قفر لا بناء فيها ثم مر بها فرأى فيها بنيانا وقصورا وعمارات محكمة لم يتخالجه شك ولا ريب أن صانعا صنعها وبانيا بناها.

ثم قال: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾؟! وهذا أيضا من المستحيل أن يكون العبد موجدا خالقا لنفسه فإن من لا يقدر أن يزيد في حياته بعد وجوده وتعاطيه أسباب الحياة ساعة واحدة ولا أصبعا ولا ظفرا ولا شعرة كيف يكون خالقا لنفسه في حال عدمه؟!

وإذا بطل القسمان تعين أن لهم خالقا خلقهم وفاطرًا فطرهم، فهو الإله الحق الذي يستحق عليهم العبادة والشكر، فكيف يشركون به إلها غيره وهو وحده الخالق لهم؟!

فإن قيل فما موقع قوله: ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ﴾ [الطور٣٦] من هذه الحجة؟ قيل: أحسن موقع، فإنه بيّن بالقسمين الأولين أن لهم خالقًا وفاطرًا وأنهم مخلوقون، وبين بالقسم الثالث أنهم بعد أن وُجدوا وخُلقوا فهم=

فالمخلوقُ لابد له من خالِق، والأثر لابد له من مؤثِّرٍ، والمحدَث لابد له من محدِث، والموجَد لابد له من موجِد، والمصنوع لابد له من صانع، والمفعولُ لابد له من فاعِل.

هذه قضايا بديهية عقلية يشترك في العلم بها جميعُ العقلاء، وهي من أعظم القضايا العقلية، فمن ارتاب فيها أو شكَّ في دلالتها فقد برهن على اختلالِ عقله وضلاله(١).

الشَّرح

= عاجزون غير خالقين، فإنهم لم يخلقوا نفوسهم ولم يخلقوا السموات والأرض، وأن الواحد القهار الذي لا إله غيره ولا رب سواه هو الذي خلقهم وخلق السموات والأرض فهو المتفرد بخلق المسكن والساكن بخلق العالم العلوي والسفلي وما فيه»[١].

(١) إنكار الحقائق وعدم الاعتداد بها أحد مظاهر الاختلال الفكري الموجودة اليوم، وهي التي تسمى السفسطة.

قال الحافظ ابن الجوزي رحمه الله: «هؤلاء قوم ينسبون إلى رجل يقال له سوفسطا[٢]: زعموا أن الأشياء لا حقيقة لها، وأن ما يستبعده يجوز أن يكون على ما نشاهده ويجوز أن يكون على غير ما نشاهده»[٣]. =

[١] الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، لابن قيم الجوزية (٢/٤٩٣ ـ ٤٩٤).

[٢] وقيل في معنى السفسطة: الحكمة المموهة، انظر: مقدمة تحقيق تلخيص السفسطة لأبي الوليد ابن رشد، وانظر: السفسطائية وأثرها في مدارس الشك، للدكتور عبد الرحمن عواجي (ص ٢٣)، والمعجم الفلسفي الصادر عن مجمع اللغة العربية في القاهرة (ص ٩٧).

[٣] تلبيس إبليس لابن الجوزي (٢/٢٨٨).

. . . . . .

الشَّرْح

= وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «حكي عن بعض السوفسطائية أنه جعل جميع العقائد هي المؤثرة في الاعتقادات، ولم يجعل للأشياء حقائق ثابتة في نفسها يوافقها الاعتقاد تارة ويخالفها أخرىٰ، بل جعل الحق في كل شيء ما اعتقده المعتقد، وجعل الحقائق تابعة للعقائد، وهذا القول علىٰ إطلاقه وعمومه لا يقوله عاقل سليم العقل، وإنما هو من جنس ما يحكىٰ أن السوفسطائية أنكروا الحقائق ولم يثبتوا حقيقة ولا علما بحقيقة»[١].

وقد فصَّلت في كتاب ترياق[٢] بطلان المنهج السفسطائي، في فصل المناهج المؤسِّسة للشبهات.

[١] مجموع الفتاوىٰ (١٣٥/١٩).

[٢] (ص٨٢).

[البرهان الثاني: برهان الإتقان والعناية](١)

الشَّرح

(١) هذا هو البرهان الثاني من براهين وجود الله تعالىٰ ويُسمىٰ برهان الإتقان والعناية، ويُسمىٰ كذلك بُرهان النظم، وقد يُسمىٰ كذلك دليل الرعاية، خُلاصته: أن هذا الكون الذي نعيشُ فيه كونٌ مُتقن الصنع لا خللَ فيه بوجهٍ من الوجوه أبدًا، وأن هذا الكون به من القوانين والثوابت الكونية ما لو تغيَّر جُزءٌ منها بنسبةٍ يسيرة لاختل نظام الكون اختلالًا كاملًا[١].

قال ابن رشد ﷺ: «الطريق التي نبَّه الكتاب العزيز عليها، ودعا الكلَّ من بابها، إذا استُقرئ الكتاب العزيز وُجدت تنحصر في جنسين:

أحدهما: طريق الوقوف علىٰ العناية بالإنسان، وخلق جميع الموجودات من أجلها، ولنُسم هذه دليل العناية.

والطريقة الثانية: ما يظهر من اختراع جواهر الأشياء الموجودات مثل اختراع الحياة في الجماد، والإدراكات الحسية والعقل، ولنسمِّ هذه دليل الاختراع.

فأما الطريقة الأولىٰ فتنبني علىٰ أصلين؛ أحدهما: أن جميع الموجودات التي هاهنا موافقة لوجود الإنسان.

والأصل الثاني: أن هذه الموافقة هي ضرورة من قبل فاعل قاصد لذلك مريد، إذ ليس يمكن أن تكون هذه الموافقة بالاتفاق، فأما كونها موافقة لوجود =

[١] انظر: الإيمان بالخالق والعلم، لجوردن ليدنر، (ص٩٠).

. . . . . .

الشَّرح

= الإنسان، فيحصل اليقين بذلك، بدليل موافقة الليل والنهار، والشمس والقمر، لوجود الإنسان، وكذلك موافقة الأزمنة الأربعة له، والمكان الذي هو فيه أيضاً وهو الأرض، وكذلك تظهر أيضًا موافقة كثير من الحيوان والنبات والجماد وجزئيات كثيرة مثل الأمطار والأنهار، وبالجملة الأرض والنار والهواء.

وكذلك أيضاً تظهر العناية في أعضاء الإنسان وأعضاء الحيوان، أعني كونها موافقة لحياته ووجوده، وبالجملة فمعرفة منافع الموجودات داخلة في هذه الجنس؛ ولذلك وجب على من أراد أن يعرف الله تعالى المعرفة التامة أن يفحص عن صانع جميع الموجودات»[١].

وقد نقل شيخ الإسلام ابن تيمية كلام ابن رشد مقرًا له[٢].

وقد أجمع كل العقلاء على أنه لا يُمكن أن يوجدَ صُدفةً أو يوجد بدون موجد، حتى عُتاة الملاحدة واللادينيين إذا ما رأوا هذا الإتقان وهذه العظمة لا يسعهم إلا الإذعان إذا كانوا من المُنصفين، ومن أشهرهم المُلحد الشهير أنتوني فلو، وهو من أشهر الملاحدة، ومروّجي الإلحاد في العالم فترة تصل إلى نصف قرن من الزمان، ثم نظرَ إلى بعض مظاهر صنع الله التي لا يشكُ=

[١] الكشف عن مناهج الأدلة، لأبي الوليد ابن رشد (ص ١١٨ ـ ١١٩) ط. مركز دراسات الوحدة العربية.

[٢] درء تعارض العقل والنقل (٩/ ٣٢١ ـ ٣٣٣).

تفكَّرْ رحمك الله في نفسك[1]، وانظر في مبدأ خلقك؛ من نطفةٍ إلىٰ

الشَّرح

= فيها أحد، وخصوصًا لما ظهرت اكتشافات الـ DNA ونحوِها فأقر واعترف بوجود خالق لهذا الكون، وألف كتابًا صدر في سنة ٢٠١٠م، وسماه «للكونِ إله» تراجع فيه عن إلحاده السابق، وأقر وأعترف بوجود خالق، لكنه لم يتبع دينًا معينًا فلا زال علىٰ كفرِهِ ومات علىٰ ذلك، لكن انتقل من الإلحاد وإنكار وجود الله إلىٰ الإيمان بوجود خالق.

وذكر في كتابهِ هذا بعضاً من الأسباب التي دعتهُ إلىٰ ذلك، وكلها تدور حول الصنع المتقن.

(١) يحثنا الله ﷻ في القُرآن الكريم علىٰ التفكر، فكم من آية في كتاب الله تُختتم بقولهِ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾ وكم آية في كتاب الله تحث علىٰ التفكر والتدبر؟.

قال الله: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، يدعونا أن ننظر في أنفسنا.

وقد أبدع الإمام ابن القيم في هذا المعنىٰ في كتابهِ «مفتاح دار السعادة»[1]، حتىٰ استغرق المجلد الثاني كله تقريبًا، وأتىٰ علىٰ جسد الإنسان كله من أعلاه إلىٰ أسفله، وهو يتدبر في عِظمِ خلق الله لجسد الإنسان، لماذا العينان بهذا الشكل متقاربتان؟ ولماذا لا توجد عين واحدة؟، ولماذا الأذنان متباعدتان ليستا مثل العينين؟ ولماذا الأنف هنا؟ ولماذا الفم هنا؟ لماذا لا تكون العين في جهة والفم في جهة؟. =

[١] مفتاح دار السعادة (٢/٥) وما بعدها، ط. دار ابن عفان.

علقة إلىٰ مُضغة، حتىٰ صرتَ بشرًا كامل الخَلْق، مكتمل الأعضاء الظاهرة والباطنة؛ أما يضطرك هذا النظرُ ويُلجئك إلىٰ الاعتراف بالربِّ القادرِ علىٰ كل شيء، الذي أحاط علمه بكل شيء، الحكيمِ في كلِّ ما خلقه وصنعه؟.

فلو اجتمع الخلقُ كلهم علىٰ هذه النطفةِ ـ التي جعلها الله مبدأَ خلقك ـ علىٰ أن ينقِّلوها في تلك الأطوارِ المتنوِّعة، ويحفظوها في ذلك القرار المكين، ويجعلوا لها أعضاء ظاهرة وقوىٰ باطنة، وسمعًا وبصرًا وعقلًا، ويُنمّوها هذه التنمية العجيبة، ويركِّبوها هذا التركيب المنظم، ويرتبوا الأعضاء علىٰ هذ الترتيب المحكم بحيث يكون كلُّ عضوٍ في محلِّه اللائق به؛ لو اجتمعوا علىٰ ذلك؛ فهل في علومهم وهل في اقتدارهم واستطاعتهم الوصولُ إلىٰ ذلك؟.

فهذا النظرُ السديدُ يوصلك إلىٰ الاعتراف بقدرة اللهِ وعظمتهِ ووحدانيتهِ، والخضوعِ له والتصديقِ بكُتبهِ، ورُسُلهِ، ومعرفتِهِ، والإيمانِ باليومِ الآخر.

تأمل في حفظِ اللهِ للسماواتِ والأرض، وما فيهما من العوالم التي لا

الشَّرح

= أسئلة تجعل الإنسان يتفكر ويتدبر، وهذا المجال تكلم فيه المختصون من الأطباء وغيرهم، فأبدعوا في بيان عِظم خلق الله، ومنهم أبو سهل عيسىٰ بن يحيىٰ المسيحي الجرجاني (ت: ٤٠١هـ) في كتابه: إظهار حكمة الله تعالىٰ في خلق الإنسان[١]، والدلائل والاعتبار علىٰ الخلق والتدبير للجاحظ[٢].

[١] طبع بتحقيق الدكتور محمد ياسر زكّور سنة ١٤٤٠ هـ ـ ٢٠١٩ م.

[٢] طبع قديمًا بتحقيق الشيخ محمد راغب الطباخ ﷺ.

يعلمها إلا هو، وفي إبقائها وإمدادها بكل ما تحتاج إليه في بقائها من الأسباب المتنوعة، والنظاماتِ العجيبة، أما يدلك ذلك على كمال الرب وربوبيته ووحدانيته وسعةِ علمهِ وشمولِ حكمته؟.

وقد نبه الله على هذا الدليل الواضح العقلي بقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: ٢٥]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

تدبّر يا أخي في هذا الفلك الدوَّار، وما ترتب عليه من تعاقب الليلِ والنهار؛ وفي تصريفِ الأوقات بفصولِها وكمال انتظامها لمصالح العبادِ ومنافعهم التي لا يمكنُ إحصاؤها.

هل حصل ذلك صُدفةً واتفاقًا من غير مُحدِثٍ وفاعِل؟، أم الذي خلق ذلك ودبَّره هذا التدبير المتقن هو الذي أحسنَ كل شيءٍ خلقه؟، كما نبّه على ذلك البرهان العقلي بقولهِ: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

وانظر ـ هداكَ اللهُ ـ إلى أنه أعطى كُلَّ شيءٍ خلقَه اللائق به؛ ثم هدى كلَّ مخلوق إلى مصالحه ومنافعهِ وضروراته التي لا بد فيها من بقائه؛ حتى البهائمَ العُجمَ صغيرَها وكبيرَها، قد ألهمها وهداها لكل أمرٍ فيه نفعها وبقاؤها، ويسَّر لها أرزاقها وأقواتها، وهداها لتناولها.

فمن نظر في هذه الهداية العامة، وبثِّها في جميع المخلوقات، وإلهامها[١]

[١] في الأصل: وألهمها.

هذا الإلهام العجيب ـ الذي تهتدي به إلىٰ مصالحها ـ: عَلِمَ بذلك عنايةَ المولىٰ العظيمة، وعلم أنه الربُّ لكل مربوب، الخالقُ لكل مخلوق، الرازقُ لكل مرزوق، الذي علَّم المخلوقاتِ وأعطاها من الأذهان ما يُصلحها ويَدفعُ عنها المضار، وذلك برهانٌ عقليٌّ واضحٌ عظيمٌ علىٰ وحدانية اللهِ وكماله.

وقد نبَّه اللهُ علىٰ[١] ذلك بقوله[٢]: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

فهل في طبيعة الحيوانات المتنوعة هذه الهداية وهذا الإلهام إلىٰ تحصيل منافعها ودفع مضارها، والحنو علىٰ أولادِها، وقيامها بهم، حتىٰ يَدرجوا ويستقلوا بأنفسهم؟.

وهل هذا الحنانُ والرحمةُ الموضوعة في الحيوانات علىٰ أولادِها إلا من أكبر الأدلة علىٰ سعة رحمة الله وشمول علمهِ وحكمته؟.

---

[١] كلمة «علىٰ» ليست في (ط).

[٢] في (ط): قال ربنا.

رحمة الله العامة

ثم انظر ـ رحمك الله ـ إلىٰ سعة رحمة الله التي ملأت أقطارَ العالم، وشملت كلَّ مخلوق في كل أحواله وأوقاته.

فبرحمته أوجد المخلوقات، وبرحمته أبقاها وحفِظَها، وبرحمته أمدّها بكل ما تحتاج إليه، وأسبغ عليها النِّعم الظاهرة والباطنة، التي لا يُمكن أن يخلوَ مخلوقٌ منها طرفة عين، وهي متنوعة عليه من كل وجه:

نِعَمُ التعليمِ لأمور الدين والدنيا، ونِعم العافية للأبدان عمومًا، ولكلِّ عضوٍ وقوةٍ علىٰ وجه الخصوص، ونِعم الأولادِ والأهلِ والأتباعِ، ونِعم الأرزاقِ الواسعة، ونِعم الحروث والزروع والثمار، ونِعم المواشي وأصناف الأمتعة، ونِعم الدور والقصور، ونِعم اللذات والحبور.

النِّعمُ التي فيها جلب المنافع كلها، والنِّعمُ التي فيها دفع المضار.

كُلُّ ذلك يدلُ أكبر دلالة علىٰ وحدانية مُولِيها ومُسديها والمتفضلِ بها، وعلىٰ سعةِ كرمهِ، ووجوبِ شُكرهِ والخضوعِ له، وإخلاصِ العملِ له؛ ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾ [النحل: ١٧]، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣].

من الأدلة: افتقار المضطرين إلى رحمة رب العالمين

ثم انظر أحوال المضطرين الواقعين في المهالك، والمشرفين على الأخطارِ، والبائسين من فقرهم المدقع، أو مرضِهم الموجع؛ وكيف تضطرهم الضروراتُ وتلجئهم الحاجاتُ إلى ربهم وإلههم؛ داعين مفتقرين وسائلين له مستعطفين، فيُجيبُ دعواتِهم ويكشف كُرباتِهم، ويرفع ضروراتِهم.

أليس في هذا أكبرُ برهانٍ على وحدانيتهِ، وسعة علمهِ ورحمته، ودقيق لُطفهِ، وأنه ملجأُ الخليقةِ كُلِّها؟، وقد نبّه الله على هذا البُرهان العقلي بقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [النمل: ٦٢]، ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٦٣]، ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٢٢، ٢٣] الآية.

وهذا النوع ـ وهو تخليص المضطرين ـ قد شَاهَدَتْهُ الخليقةُ بأعيُنِهم؛ ورأوا من الوقائع ما لا يُعدُّ ولا يُحصى، وهذا يضطرهم إلى الاعترافِ بالله وبوحدانيته.

فانظر إلى حالة المضطرينَ إذا كَرَبَتهم الشدائد وأزعجتهم النوائبُ، كيف تجدُ قُلوبَهم متعلقةً بالله، وألسنتَهم ملحةً في سؤاله، وأفئدتَهم متشرفةً

لنواله ؟ ؛ لا تلتفتُ عن اللهِ يَمنةً ولا يَسرة ؛ لعلمها الضروريِّ أنه وحده كاشفُ الشدائد ، فارجُ الكُروب ؛ لا ملجأَ للخليقةِ إلا إليه ؛ ولا معوَّلَ لهم إلا عليه ؟ .

فهل هذه الأمور إلا لأن الخليقةَ مفطورةٌ على الاعترافِ بوحدانية ربها ، وأنه النافعُ الضارُّ ، وأن ملكوتَ كُلِّ شيءٍ بيديه ؟ ، وهل يُنكرُ ذلكَ إلا مَن فَسَدت فطرتُهُ بالعقائدِ الفاسدة والإراداتِ السيئة ؟ .

وانظر إلى فقرِ الخلائقِ إلى ربهم في كُلِّ شيء ؛ فهم فقراءُ إليهِ في الخلقِ والإيجاد ، وفقراءُ إليهِ في البقاءِ والرزقِ والإمداد ، وفقراءُ إليه في جَلْب جميع المنافع ، وفقراءُ إليه في دفعِ المضارِّ .

فهم يسألونه بلسانِ المقالِ ولسانِ الحال ؛ فيعطيهم مطالبَهم ، ويُسعفُهم في كُلِّ مآربِهم ؛ إن رغبوا لم يرغبوا إلا إليه ، وإن مستهم الضراءُ لم يلجأوا إلا إليه .

فكم كشف الضرَّ والكُروب ، وكم جبر الكسيرَ ويسَّرَ المطلوب ، وكم أغاثَ ملهوفًا ، وكم أنقذَ هالكًا ، ففقرُهم إليهِ في جميعِ الأحوال ظاهرٌ مشاهد ، وغناهُ عنهم لا يُنكرهُ إلا كُلُّ مكابرٍ وجاحدٍ[1] .

الشَّرح

(١) نعم ، هناك داخل كُل إنسان ـ مهما كابر ـ افتقارٌ إلى ربه ، وقد سألت بنفسي بعض الملاحدة هذا السؤال ، فقُلت: إذا أصابك ضُرٌّ أو مُصيبةٌ أو هَمٌّ أو غمٌّ ، هل تشعر بشيء في قلبك وافتقارٍ إلى ربّك ؟ . =

. . . . . .

الشَّرح

= فنفى بعضهم، وأجاب بعضهم بالإيجاب، وقال: نعم، أشعر أن هُناك مَن سينقذني، وأشعر أن هناك خالقًا، وصَدَقَ أحدُهم معي واسترسل قائلًا: وأجد في نفسي رغبة في دعاء لكنني كنت أُكابر! ويضحك عليه الشيطان فيقول له: إذا دعوت ربك فقد ناقضت نفسك.

فهذا الشعور الفطري بالافتقار إلى الله تعالى ينبعث فيهم إذا أصابتهم الكروب، وحزبتهم الهموم، وهذا مصداق قول الله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]، ثم قال: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٦٢]؟.

إجابة الله تعالى للدعوات

ومن براهينِ رُبوبيتهِ ووحدانيتهِ: إجابتهُ للدعواتِ في كُلِّ الأوقاتِ، فلا يُحصِي الخلقُ ما يُعطيهِ السائلينَ، وما يُجيبُ به أدعيةَ الداعينَ، من بَرٍّ وفاجرٍ، ومُسلمٍ وكافرٍ.

تحصلُ للعباد المطالبُ الكثيرةُ، ولا يعرفون لها شيئًا من الأسبابِ سوىٰ الدُعاءُ، والطمعُ في فضل اللهِ والرجاء لرحمتهِ.

وهذا[١] بُرهانٌ مُشاهدٌ في كُلِّ الأوقات، لا يُنكرهُ إلا مُباهتٌ جاحدُ.

يدعونه في مطالب دينهم فيُجيبُهم، وفي مطالب دُنياهم فيُجيبُهم، ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ﴾ [البقرة: ٢٠٠ ـ ٢٠٢][(١)].

الشَّرح

(١) الله ﷻ ذكر في كتابه أنه يجيب دعاء الداعين، فقال ـ جل ثناؤه ـ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقال ـ تقدست أسماؤه ـ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤].

بل إن الله ﷻ يستجيب حتىٰ للكافر المضطر المخلص إذا دعا؛ فإن الله حكىٰ عن أقوام دعوه في تلك الحال فاستجاب لهم وأعطىٰ. =

[١] في (ط): بدون الواو.

. . . . . .

الشَّرح

= قال ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٢٢ ـ ٢٣].

وقال تعالىٰ ذكره: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥ ـ ٦٦].

وقال ـ جل وعز ـ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

ويثير بعض الناس سؤالًا هنا: وهو أننا دعونا كثيرًا فلم يستجب لنا ربنا! لماذا؟.

فأقول مستعينًا بالله تعالىٰ: إن الاستجابة مضمونة، لكن لا يعرف الداعي نوع هذه الاستجابة ولا وقتها؛ لذلك نهانا النبي ﷺ عن الاستعجال في=

. . . . . .

الشَّرح

= الدعاء، فقال ﷺ: «لايزال يُستجاب للعبد مالم يَدْعُ بإثمٍ أو قطيعة رحم، مالم يستعجل»، قيل: يا رسول الله ما الاستعجال؟، قال: «يقول: قد دعوت، وقد دعوت فلم أر يستجب لي، فيستحسر عند ذلك ويَدَعُ الدعاء»[١].

فإذا أتىٰ الداعي بشرائط الإجابة فإنه سيحصل علىٰ الخير وسينال نصيباً وافراً من ثمرات الدعاء ولا بد، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من أحد يدعو بدعاء إلا آتاه الله ما سأل، أو كفّ عنه من السوء مثله، مالم يدع بإثم أو قطيعة رحم»[٢].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من مسلم يدعو ليس بإثمٍ ولا قطيعةَ رَحِمٍ إلا أعطاه الله إحدىٰ ثلاث: إما أن يُعجِّل له دعوته، وإما أن يدّخرها له في الآخرة، وإما أن يدفع عنه من السوء مثلها»، قال: إذن نكثر، قال: «الله أكثر»[٣].

وقد يكون في تأخير الإجابة خيرٌ للداعي، فإن الله ﷻ له الحكمة البالغة، فلا يعطي إلا لحكمة، ولا يمنع إلا لحكمة، وقد ترىٰ في الشيء مصلحة ظاهرة، ولكن الحكمة لا تقتضيه، فقد تخفىٰ الحكمة فيما يفعله الطبيب=

[١] رواه مسلم (٢٧٣٥).
[٢] رواه أحمد (١٤٨٧٩)، والترمذي (٣٣٨١)، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع (٥٦٧٨).
[٣] رواه البخاري في الأدب المفرد (٧١٠) وقال الألباني: صحيح.

. . . . . .

الشَّرح

= من أشياء تؤذي في الظاهر، ولكنه يقصد بها المصلحة الآجلة، فلعل هذا من ذاك، وقد يكون في تحقق المطلوب زيادة في الشر، فربما تحقق للداعي مطلوبه، وأجيب له سؤله، فكان ذلك سبباً في زيادة إثم، أو تأخير عن مرتبة، أو كان ذلك حاملاً على الأشر والبطر.

فربّما مَنَعَكَ من حصول الذي دعوتَ بهِ، وإن كان ظاهرهُ الخير لك؛ لأن مآلهُ إلى الشر العظيم، لذلك يقول الله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

[البرهان الثالث: آيات الأنبياء]

ومن براهين وجود الله ووحدانيتهِ: ما يُجريه الله علىٰ أيدي أنبيائه من خوارق الآيات والمعجزات والبراهين القاطعات، وما يُكرمهم به في الدنيا وينصرهم، ويجعل لهم العواقب الحميدة، ويخذلُ أعداءَهم ويعذّبُهم بأصناف العذاب.

وهذا متواترٌ معروفٌ بين الخواص والعوام، وقد نقلتها الأُممُ والقرونُ والأجيال، وصارت أعظمَ من برهانِ الشمسِ والقمر، وهي كلها براهينٌ علىٰ ربوبية من أرسلهم، ووحدانيته، وعظمة سُلطانه، وكمال قدرته، وسعة علمه وحكمته، وما يُنكرها إلا كُلُّ مُتكبرٍ جبار(١).

الشَّرْح

(١) من أعظم الأدلة علىٰ وحدانية الله رُبوبيتهِ وألوهيته الآيات التي أجراها علىٰ أيدي أنبيائه ورُسُلهِ عليهم أفضلُ الصلاةِ وأتمُ التسليم، واللهُ قد بعثَ الرُسُل إلىٰ أقوامهم يدعونهم إلىٰ التوحيد، وأيدهم بالآيات والبراهين والمعجزات التي تدلُ علىٰ صدقهم.

وكان خاتمهم وأعظمهم مُحمد ﷺ، وقد أيّدهُ اللهُ بالأدلةِ التي تؤكدُ ربوبية الله، وتؤكدُ صدق النبي، للعاقل المنصف.

وهي كثيرة جداً، قال شيخ الإسلام: «كلما كان الناس أحوج إلىٰ معرفة الشيء، فإن الله يوسع عليهم معرفة نفسه ودلائل نبوة رسله ودلائل قدرته=

. . . . . .

الشَّرح

= وعلمه وغير ذلك، فإنها دلائل كثيرة قطعية»[١].

وقال: «فإن تعداد أعيان دلائل النبوة مما لا يمكن بشرًا الإحاطة به، إذ كان الإيمان به واجبًا على كل أحد»[٢].

والاستدلال على وجود الله تعالى وتوحيده بدلائل النبوة أمرٌ قد مضى عليه السلف رحمهم الله، فقد قال الإمام البيهقي رحمه الله: «وقد سلك بعض مشايخنا رحمنا الله وإياهم في إثبات الصانع وحَدَث[٣] العالم طريق الاستدلال بمقدمات النبوة، ومعجزات الرسالة؛ لأن دلائلها مأخوذة من طريق الحس لمن شاهدها، ومن طريق استفاضة الخبر لمن غاب عنها، فلما ثبتت النبوة صارت أصلًا في وجوب قبول ما دعا إليه النبي ﷺ، وعلى هذا الوجه كان إيمان أكثر المستجيبين للرسل صلوات الله عليهم أجمعين»[٤].

وإلى نحوه مال الإمام الخطابي فقال: «وإنما ثبت عندهم أمر التوحيد من وجوه، أحدها: ثبوت النبوة بالمعجزات التي أوردها نبيّهم من كتابٍ قد أعياهم أمرُه، وأعجزهم شأنُه، وقد تحدّاهم به»[٥].

وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إلى هذين النقلين وأقرّهما، ثم قال:=

---

[١] درء التعارض (١٠/١٢٩).

[٢] الجواب الصحيح (٦/٣٧٧ ـ ٣٧٨).

[٣] في بعض طبعات كتاب الاعتقاد: «وحدوث» والمعنى واحد.

[٤] الاعتقاد، للبيهقي (ص ٩٣).

[٥] الغنية عن الكلام وأهله، للخطابي (ص ٣٤١).

. . . . . .

الشَّرح

= «قلت: كثير من المتكلمين يقولون: لا بد أن تتقدم المعرفة أولا بثبوت الرب وصفاته التي يعلم بها أنه هو ويظهر المعجزة وإلا تعذر الاستدلال بها على صدق الرسول فضلا عن وجود الرب.

وأما الطريقة التي ذكرها المتقدمون فصحيحة إذا حُرّرت، وقد جاء القرآن بها في قصة فرعون فإنه كان مُنكرًا للرب، قال تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ﴾ ـ **إلى قوله** ـ ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الشعراء: ١٦ ـ ٣٣]. فهنا: قد عرض عليه موسى الحجة البينة التي جعلها دليلا على صدقه في كونه رسول رب العالمين، وفي أن له إلها غير فرعون يتخذه، وكذلك قال تعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [هود: ١٤] فبين أن المعجزة تدل على الوحدانية والرسالة وذلك لأن المعجزة ـ التي هي فعل خارق للعادة ـ تدل بنفسها على ثبوت الصانع كسائر الحوادث بل هي أخص من ذلك؛ لأن الحوادث المعتادة=

. . . . . .

الشَّرح

= ليست في الدلالة كالحوادث الغريبة؛ ولهذا يسبح الرب عندها ويمجد ويعظم ما لا يكون عند المعتاد ويحصل في النفوس ذلة من ذكر عظمته ما لا يحصل للمعتاد إذ هي آيات جديدة فتعطى حقها وتدل بظهورها على الرسول، وإذا تبين أنها تدعو إلى الإقرار بأنه رسول الله فتتقرر بها الربوبية والرسالة لا سيما عند من يقول دلالة المعجزة على صدق الرسول ضرورية»[١].

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: «قلت: وهذه الطريق من أقوى الطرق وأصحها وأدلها على الصانع وصفاته وأفعاله، وارتباط أدلة هذه الطريق بمدلولاتها أقوى من ارتباط الأدلة العقلية الصريحة بمدلولاتها، فإنها جَمَعَت بين دلالة الحس والعقل ودلالتها ضرورية بنفسها ولهذا يسميها الله سبحانه ﴿ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ﴾ وليس في طرق الأدلة أوثق ولا أقوى منها، فإن انقلاب عصا تقلها اليد ثعبانا عظيما يبتلع ما يمر به ثم يعود عصا كما كانت من أدل الدليل على وجود الصانع وحياته وقدرته وإرادته وعلمه بالكليات والجزئيات وعلى رسالة الرسول، وعلى المبدأ والمعاد فكل قواعد الدين في هذه العصا وكذلك اليد وفلق البحر طرقا والماء قائم بينهما كالحيطان ونتق الجبل من موضعه ورفعه على قدر العسكر العظيم فوق رؤوسهم وضرب حجر مربع بعصا فتسيل منه اثنتا عشرة عينا تكفي أمة عظيمة وكذلك سائر آيات الأنبياء»[٢].

[١] مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١١/٣٧٨ ـ ٣٧٩).

[٢] الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، لابن القيم (٣/١١٩٧).

محاسن الشريعة

ومن أعظمِ براهين وحدانيته: ما أنزله اللهُ على أنبيائه عمومًا من الكُتبِ والشرائع، وما أنزلهُ على مُحمدٍ ﷺ خصوصًا من الكتابِ العظيمِ والسُنّةِ والشريعةِ الكاملةِ التي بها صلاحُ الخلق، وبها قِوامُ دينهم ودنياهم[1].

وفيها من الآياتِ والبراهينِ ما لا يُعبّرُ عنهُ المُعبّرون، ولا يقدِرُ أن يصفهُ الواصفون، وآياتهُ قائمةٌ في جميعِ الأوقات، مُتحديةٌ للخلقِ كلِّهم؛ على اختلافِ مِلَلِهم ونِحَلِهم، وقد تبيّن عجزُهم ووضحَ عليهم: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

فمن نظر فيما احتوى عليه القُرآنُ العظيمُ من الأخبارِ الصادقةِ، والأحكام العادلة، والشرائع المُحكمة، والصلاحِ العام، وجلبِ المنافعِ الدينية والدنيوية، ودفعِ مضارِّهما، والخيرِ العظيمِ والهداية، والصلاحِ المُطلق الكامل: اضطرَ إلى الاعترافِ بأنهُ تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ، وربٍّ كريمٍ.

وكذلك مَن نَظرَ إلى ما جاء به الرسُولُ ﷺ من السُنّةِ والشرعِ الكامل، والدينِ القويمِ والصراطِ المستقيمِ في كُلِّ شؤونه؛ اضطرهُ بعضُ ذلك ـ فكيف بكله ـ إلى الاعتراف بوحدانية الله، وأن الذي شرعه هو الربُّ العظيمُ الحكيمُ في شرعهِ ودينه؛ كما هو حكيمٌ في خلقهِ وتقديره.

الشَّرح

[١] محاسن الشريعة الربانية من جملة الدلائل على صحة نبوة الأنبياء، فالحديث عنها تابع للحديث عن برهان آيات الأنبياء.

[البرهان الرابع: الفطرة]

ومن براهين وحدانية الله: أن العقولَ والفِطرَ مضطرةٌ إلىٰ الاعتراف بباريها، وكمالِ قدرته ونفوذ مشيئته، وذلك أن الخلقَ محتاجون ومضطرون إلىٰ جلب المنافع ودفع المضار.

ومن المعلوم لكلِّ عاقلٍ أن حاجة النفوس إلىٰ خالقها وإلهها أعظمُ من جميع الحاجات والضرورات، فهي مضطرةٌ إلىٰ علمها بأنه خالقُها وحده، ومالكُها وحده، ومبقيها وحده، وممدّها بمنافعها وحده؛ ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾ [الروم: ٣٠]، ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ﴾ [الروم: ٣٠][(١)].

ولم يخرج عن هذه[١] الفطرة إلا من اجتالتهم الشياطين، وحوَّلتَ فِطَرَهم، وغيّرتها بالعقائدِ الفاسدة، والخيالاتِ الضالة، والآراءِ الخبيثة، والنظرياتِ الخاطئة.

فلو خُلُّوا وفطَرهم؛ لم يميلوا لغير ربهم، منيبين إليه في جلب المنافع ودفع المضار، ومنيبين إليه في التألُّه والتعبُّد والخضوع والانكسار[(٢)].

الشَّرح

(١) قال تعالىٰ: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

(٢) الفطرة في اللغة بمعنىٰ الخِلقة والابتداء والإنشاء، وفَطَر الأمر أي: ابتدأه=

[١] في (ط): هذي.

. . . . . .

الشَّرح

= وأنشأه[١]، وقد قال ابن عباس ﷺ: ما كنت أدري ما ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ حتىٰ أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتُها، أي: أنا ابتدأتُ حفرها[٢].

والفطرة كذلك هي الجِبلّة القابلة للدين الحق[٣]، والتي طُبِعَتْ عليها الخليقة من الدّين، فقد فَطَرَهُمُ الله علىٰ معرفته ورُبُوبيّته[٤].

قال الله ﷻ: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾، وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يُولَد على الفطرة؛ فأبواه يُهوِّدانه، أو يُنصِّرانه، أو يُمجِّسانه؛ كمَثَل البهيمة تُنتَجُ البهيمةَ، هل ترى فيها جدعاءَ؟»[٥].

قال ابن الأثير ﷺ: «والمعنىٰ أنه يولد علىٰ نوع من الجبلّة والطبع المتهيئ لقبول الدين، فلو ترك عليها لاستمر علىٰ لزومها ولم يفارقها إلىٰ غيرها، وإنما يعدل عنه من يعدل لآفة من آفات البشر والتقليد، ثم تمثل بأولاد اليهود والنصارىٰ في اتباعهم لآبائهم، والميل إلىٰ أديانهم عن مقتضىٰ الفطرة السليمة»[٦]. =

[١] تاج العروس، للزبيدي (١٣/٣٢٦).
[٢] رواه البيهقي في شعب الإيمان (٣/٢١٢).
[٣] أساس البلاغة، للزمخشري (٢/٢٨).
[٤] كتاب العين، للخليل بن أحمد (٧/٤١٨).
[٥] متفق عليه، رواه البخاري (١٣٨٥) ومسلم (٢٦٥٨).
[٦] النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/٤٥٧).

. . . . . .

الشَّرح

= فالفطرة إذن: هي قوة مودَعة في النفس تولَد مع الإنسان تقتضي معرفةَ الله تعالىٰ وتوحيده، وإدراكَ المبادئ العقلية الأولية، التي تسير حياته من خلالها بشكل صحيح، بشرط عدم التأثير الخارجي الذي يحرف هذه الفطرة عن مسارها.

فلو سَلِمَ الطفلُ من المؤثرات الخارجية التي تحرفه عن فطرته سينشأ موحداً مؤمناً بالله ﷻ، كما ثبت في الحديث السابق.

وقد أثبت العلم التجريبي صحة هذا الحديث، ففي بحث كبير تحت إشراف أساتذة في جامعة أكسفورد عمل فيه ٥٧ باحثًا، في ٢٠ دولة، علىٰ مدار ٣ سنوات، بتكلفة ١,٩ مليون جنيه استرليني، ونُشرت نتائجه سنة ٢٠١١ م، وثبت فيه أن الأطفال الصغار يولدون ولديهم فطرة الإيمان بالله وبالحياة بعد الموت[١]، وقد نشرت نتائج هذا البحث أيضًا صحيفة التليغراف البريطانية[٢].

[١] انظر: https://www.sciencedaily.com/releases/2011/07/110714103828.htm
وقد استفدتُ الدلالة علىٰ هذا البحث من كتاب: الإلحاد للمبتدئين، للدكتور هشام عزمي (ص ٧١)
ومن أراد الاستزادة في هذا الموضوع فعليه بكتاب: «فطرية الإيمان: كيف أثبتت التجارب أن الأطفال يولدون مؤمنين بالله» للدكتور جستون باريت، وقد ترجمه وأصدره مركز دلائل.

[٢] https://www.telegraph.co.uk/news/politics/8510711/Belief-in-God-is-part-of-human-nature-Oxford-study.html.

الثواب المعجل للمحسنين والعقاب المعجل للظالمين

ومن براهين وحدانية الله تعالىٰ وكرمه: ما يكرم الله به الواصلين لأرحامهم، المحسنين إلىٰ المضطرين والمحتاجين، وخَلَفُه العاجل لهم نفقاتِهم، وتعويضُه لهم من جوده وكرمه، وفتحُه لهم أسبابًا وأبوابًا من الرزقِ بسبب ذلك الإحسان؛ الذي له الموقع الطيب.

وقد عَلِمَ الخلقُ المتأملون أن ذلك سببَ[١] تلك الأعمال الصالحة والصلة والإحسان والمقدمات الحسنة؛ ألا يدلنا ذلك أن الله قائمٌ علىٰ كل نفس بما كسبت؟، وأن هذا جزاء معجل وثواب حاضر؛ نموذجٌ لثواب الآخرة؟.

وأنواعُ ذلك وأفرادُه لا تدخل تحت الحصر، وقد رأىٰ الناسُ من ذلك عجائب؛ مصداقًا لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ [سبأ: ٣٩]، و﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، ولقوله ﷺ: «**من أحب أن يُبسط له في رزقه، ويُنسأ له في أجله، فليصل رحمه**» متفق عليه[٢].

فكم أحسن الله علىٰ المحسنين، وكم أخلفَ نفقاتِ المنفقين، وكم جَبر قلوبَ الواصلين لأرحامهم المشفقين.

ونظيرُ هذا البرهانِ: العقوباتُ التي يعجِّلها الله للباغين والقاطعين والظالمين والمجرمين بحسَبِ جرائمهم؛ عقوباتٌ يشاهدها الناسُ رأيَ

[١] في (ط): سبب ذلك.

[٢] رواه البخاري (٢٠٦٧)، ومسلم (٢٥٥٧) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

العين، ويتيقنون أن ذلك جزاءٌ وعقوبةٌ لتلك الجرائم.

فمن تأمل وسمع الوقائعَ، وأيامَ الله في الخلق، وعَلِم ارتباطها بأسبابها الحسنة والسيئة: عَلِم بذلك وحدانية الله وربوبيتَه وكمالَ عدلِه وسعةَ فضلِه؛ فضلًا عن الاستدلال بها على وجوده، ووجوبِ وجوده.

فإن كل ما دلَّ على شيء من أوصافه وأفعاله فإنه يتضمن إثباتَ ذاتهِ ووجوبَ وجوده.

فصلٌ تابع لما قبله(١)

واعلم أن طرقَ معرفةِ الله واسعةٌ جدًا؛ وذلك بحسَبِ حاجة الخلق وضروراتِهم إليها، وكلٌّ يعبِّر عنها بعباراتٍ؛ إما كلية وإما جزئية؛ بحسب الحال التي تحضره، وبحسَبِ الأمورِ التي تغلب عليه.

وإلا فكلُّ ما خَطَر في القلوب، وشاهدته الأبصار، وأدركته الحواس والمشاعر، وكلُّ متحركٍ وساكنٍ، وكلُّ حيوانٍ وجماد: أدلةٌ وبراهينُ على وحدانية الله، وآيات عليه.

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ ❁ تدلُ على أنه واحدُ

ولكن الجزئيات تسبق إلى الأذهان[١]، وتفهمها القلوبُ تفصيليًا، ويحصلُ بها النفعُ والفائدةُ العاجلة؛ لسهولتها وبساطتها، وكونها تُدْرَك بالبديهة، فلنذكر لها أمثلةً وحكاياتٍ عن المتقدمين والعصريين، وكلٌّ يفهم منها ما يناسبه ويليق بفهمه:

❁ سئل بعضهم: بم عرفت ربك؟، فقال: إن البَعْرةَ تدل على البعير، وآثارَ السيرِ تدل على المسير؛ فسماءٌ ذات أبراج، وأرضٌ ذات فِجَاجٍ، وبحارٌ

الشَّرح

(١) ساق المؤلف ﷺ في هذا الفصل جملة من الحكايات والمقالات الواردة عن السلف في سياق الاستدلال على وجود الله تعالى ووحدانيته.

[١] في الأصل: الأذهاب!.

ذات أمواج ؛ ألا تدل على اللطيف الخبير ؟[(١)] .

❊ واجتمع طائفةٌ من الملاحدة ببعض أهل العلم ـ وأظنه الإمام أبا حنيفة[١] ـ فقالوا: ما الدلالةُ على وجودِ الصانع ؟ ، فقال لهم: دعوني فخاطري مشغولٌ بأمر غريب ، قالوا: ما هو ؟ ، قال: بلغني أن في دجلةَ سفينةً عظيمةً ، مملوءة من أصناف الأمتعة العجيبة ، وهي ذاهبة وراجعة من غير أحدٍ يحركها ، ولا رُبَّانٍ يقوم عليها .

فقالوا له: مجنونٌ أنت ؟

الشَّرح

(١) قال أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله (ت: ٥٩٧هـ): «سئل بعض الأعراب: ما الدليل على وجود الصانع ؟ فقال: إن البعرة تدل على البعير ، وآثار القدم تدل على المسير ، فهيكل علوي بهذه اللطافة ، ومركز سفلي بهذه الكثافة ، أما يدلان على الصانع الخبير ؟!»[٢] .

وهي عبارة شهيرة تتابع على ذكرها العلماء[٣] .

وهو في حقيقته استدلال بدليل الحدوث ودليل الإتقان على وجود الله ، فقوله: «البَعْرةَ تدل على البعير ، وآثار السير تدل على المسير» ، وقوله: «فسماءٌ ذاتُ أبراج وأرضٌ ذاتُ فِجَاج ، وبحارٌ ذاتُ أمواج ، ألا تدلُ على اللطيف الخبير ؟» استدلال بدليل الحدوث ودليل الإتقان .

[١] في (ط): أظنه أبا حنيفة ، والمثبت من الأصل المخطوط .

[٢] زاد المسير في علم التفسير (١/٢٦٦) .

[٣] انظر: لوامع الأنوار البهية ، للسفاريني (١/٢٧٢) ، وذكر أن المجيب هو الأصمعي ، وتفسير الثعلبي (٣/٣٢) ، وشرح البخاري ، للسفيري (١/٤٦١) .

قال: وما ذاك؟

قالوا: هذا يصدّقه عاقل؟!

فقال لهم: فكيف صدّقتْ عقولُكم أن هذا العالَم؛ بما فيه من الأصناف والأنواع والحوادثِ العجيبة، وهذا الفَلَكَ الدوارَ السيَّارَ: يجري وتجري هذه الحوادثُ بغير محدِث، وتتحرك هذه المتحركاتُ بغير محرِّك؟! فرجعوا على أنفسهم بالملام(١).

* وقيل لبعضهم: بم عرفت ربك؟ فقال: هذه النطفةُ التي يلقيها الفحل في رحم الأنثى، فيطوِّرها الله من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى آخر أطوارها، فيكون بشرًا سويًا كاملَ الأعضاء الظاهرة والباطنة، له سمعٌ يسمع به

الشَّرح

(١) نسب الإمام ابن أبي العز الحنفي رحمه الله في شرح الطحاوية هذه الحادثة للإمام أبي حنيفة رحمه الله[١]، في حين نسبها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إلى بعض أهل العلم[٢].

قلت: وشبيهٌ بذلك ما فعلهُ إبراهيم عليه السلام لما كسر أصنام قومه، ثم ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝٦٢ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٢ ـ ٦٣]، وهذا من أساليب الإقناع والتعليم.

[١] شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز (١/١٥٠)، وانظر الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان، لابن حجر الهيتمي (ص٥٩) ونقله عنه العجلوني في عقد اللآلئ والمرجان (ص١١٨).

[٢] درء تعارض العقل والنقل (٣/١٢٦ ـ ١٢٧).

الأصوات، وبصرٌ يبصر به المشاهدات، وعقلٌ يهتدي به إلىٰ مصالحه، ويدان يبطش بهما، ويعمل بهما الأعمال الدقيقة، ورِجلان يمشي بهما، وأعضاءُ كثيرة خلقت لمنافع أخرَ معروفة، وله منافذُ يدخل منها ما يغذي البدنَ، ومنافذُ أخرُ يخرج منها ما يضره.

وقد رُكِّب هذا التركيبَ العجيبَ الذي لو اجتمعت الخلق علىٰ إيجاد شخصٍ واحد علىٰ هذا الخلق المحكم العجيب؛ لعجزت معارفهم وقُدَرُهم[١] عن ذلك، أليس ذلك دليلًا وبرهانًا علىٰ وجودِ الخالق وعظمتِه ووحدانيتِه؟.

قلت: وقد ذكر الله هذا البرهانَ في كتابه في أساليب متنوعة(١).

❊ وقيل لبعضهم: بم عرفتَ ربك؟ فقال[٢]: بنقضِ العزائم والهمم(٢).

الشَّرح

(١) وهو نفسهُ بُرهان الإتقان والعناية الذي سبق الحديث عنه.

(٢) ذكره الباقلاني (ت: ٤٠٣هـ)، ونصّه: «وقد سئل بعض السلف فقيل له: بم عرفت ربك؟، قال: بنقض العزائم، وفسخ الهمم»[٣].

وذكره السمين الحلبي (ت: ٧٥٦هـ) في كتابه عمدة الحفاظ، ونصه: «وعن بعضهم: عرفت الله بنقض العزائم»[٤].

[١] هكذا ضُبطت في الأصل الخطي.

[٢] في (ط): قال.

[٣] الإنصاف فيما يجب اعتقاده، للباقلاني (ص٦٣).

[٤] عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ (١/٤٦٧)، وكذا السيوطي في معترك الأقران (٣/٣٨١).

ومعنىٰ ذلك: أن العبد يعزم في كثير من أموره عزمًا جازمًا مصممًا لا تردد فيه، ثم بعد ذلك تنتقض همته، وينحلُّ عزمه إلىٰ تركه أو[١] إلىٰ أمرٍ آخر يرىٰ فيه مصلحته.

وما ذلك إلا لأن اللهَ علىٰ كل شيءٍ قدير، يَصْرِفُ القلوبَ كما يدبرُ الأبدانَ، وقد يصرفه عن بعض ما يعزم عليه لطفًا به، وإبقاءً علىٰ إيمانه ودينه، فيلطف[٢] به من حيث لا يشعر؛ فنسأله اللطفَ في الأمور كلها، والتيسير لليُسرىٰ.

❊ وسئل بعضهم: بم عرفت ربك؟ فقال: كم كنتُ مكروبًا ففرّج كربتي، وكنتُ مريضًا فدعوته فشفاني، وكنتُ فقيرًا فأغناني، وكنتُ ضالًا عن الهدىٰ فتلطف بي وهداني، وليس هذا الأمر لي وحدي؛ فكم له علىٰ عباده من هذه النعم وغيرها مما لا حصرَ له ولا عدَّ، وهذا يضطرني إلىٰ الاعتراف بوحدانيته وقدرته ورحمته.

❊ وقيل لبعضهم: بم عرفتَ الله؟ فقال: قد رأينا ورأىٰ الناسُ في الدنيا مصارعَ البغاةِ المجرمين وعواقبهم الوخيمة، كما رأينا ورأوا في المحسنين عواقبهم الحميدة، فعجَّل للعبادِ نموذجًا من الثواب والعقاب، ليعرفوه، ويخضعوا له وحده، ويعبدوه وحده.

---

[١] في (ط): و.

[٢] في (ط): فيتلطَّف.

❊ وقيل لآخر: بم يُعرفُ[١] الله؟، فقال: بإيصاله النعمَ إلىٰ خلقه وقت الحاجة والضرورة إليها.

هذا الغيثُ ينزله وقتَ الحاجة، ويرفعه إذا خِيف منه الضرر، وهذا الفرج يأتي إذا اشتدت الأزمات، وهذه المطالبُ تأتي منه وقت الحاجة إليها، وهذه أعضاءُ الآدمي وقواه؛ يعطيها الله إياها شيئًا فشيئًا بحسب حاجته إليها.

فهل يمكن أن تكون هذه الأمورُ صدفةً؟ أم يُعلم بذلك علمَ اليقين أن الذي أعطاهم إياها وقتَ الحاجة والضرورة هو الربُّ المعبود، الملك المحمود؟.

قلتُ: ومن هذا الباب ما نتكلم فيه من معرفة الله؛ فإنه لما كانت حاجةُ العبادِ إلىٰ معرفة الله فوق جميع الحاجات، والضرورةُ إليها تفوق جميع الضرورات؛ يسَّرها الله لعبادِه ونهج لهم طرقَها، وفتح لهم أبوابَها ومسالَكها، وأوضحَ أدلتها، وذلك لشدة الحاجة إليها، وسعة رحمةِ الله وإحسانه(١).

الشَّرح

(١) طُرق معرفة الله تعالىٰ متنوعة، وأدلة وجوده كثيرة، وهي سهلة المأخذ قريبة المدرك، ومع ذلك نجد الملاحدة مُنكِرينَ، وإذا تأملنا ذلك سنجد مَرْجِعه إلىٰ أسباب نفسية، لا فكرية ولا عقلية، بل ربما تجد الواحد منهم لم يقرأ عن الدين أصلًا، ولم يبحث في الحُجج، ولم يسأل عنها.

وقد كَتَب عالم النفس الأمريكي بول كلايتون فيتز كتابًا اسمهُ «إيمان فاقد=

[١] في (ط): عرفتَ.

❊ وقيل لبعضهم: بم يُعرَف الله؟ فقال: يُعرَف بأنه علَّم الإنسانَ ما لم يعلم، خرج من بطن أمه لا يعلم شيئًا، فأعطاه آلاتِ العلم، ويسَّر له أسبابه، فلم يزل يتعلم أمور دينه حتىٰ صارَ عالمًا ربانيًا، ولم يزل يتعلم أمور دنياه حتىٰ صار ماهرًا مخترعًا للعجائب، ويسَّر له كلَّ سبب ينال به ذلك.

ومن عجيبَ الأمرِ أن اللوحَ إذا كتب فيه، وشُغِل بشيء من الأشياء؛ لم يسع غيرها، ولم يمكن أن يكتب فيه شيءٌ آخر قبل مَحْيِ ما كُتِب فيه، وقلبُ الإنسانِ لا يزال يحفظ ويعقل الأمورَ والمعارفَ المتنوعة.

وكلما توسعت معارفُه وغزر علمُه: قويت حافظته، واشتدَّت ذاكرته، وتوسعت أفكارُه، فهل هذه الأمورُ في طوق البشر وقدرتهم؟، أم هذا من أكبر البراهينِ علىٰ عظمةِ الله ووحدانيته وكماله وسعة رحمته؟.

الشَّرْح

= الأب»، قرر فيه أن الأصل في إشكالية الإلحاد أنها نفسية بعد أن استعرض سير الملاحدة عبر التاريخ، واكتشف أن جُلّهم أو كلهم عنده مشكلة نفسية أدت به إلىٰ الإلحاد لا عن بحث ولا اطلاع، ولا عن نظر في الأدلة، وإنما هي مشاكل نفسية، وهناك رسالة صغيرة اسمها «بواعث الإلحاد النفسية» تأليف رشود التميمي، وكذلك كتاب اسمه «الإلحاد مشكلة نفسية»، وغيرها من الكُتب.

وهناك أيضًا أسباب منهجية كذلك، كوجود خلل في التفكير، فقد تكون الشمس واضحة، ولكن المشكلة في العمىٰ!.

❊ وقيل لبعضهم: بم يعرف الله؟ فقال: هذه النواةُ يغرسُها الناسُ؛ فيأتي منها النخيلُ والأشجارُ المتنوعة، وتخرج الثمارُ اللذيذةُ النافعة، وهذه الحبوبُ تُلقىٰ في الأرضِ فتخرج أصنافُ الزروعِ التي هي مادَّةُ أقواتِ الآدميين وبهائمهم، ثم لا تزال تعاد وتُغَلُّ كلَّ عام ما يكفي العباد ويزيد عن حاجتِهم.

أليس هذا برهانًا ودليلًا علىٰ وجود الله وقدرته، وعنايتِهِ بعبادِهِ ورحمته؟.

وقد نبَّه الله علىٰ هذا الدليل والبرهان العقلي المشاهد في قوله تعالىٰ: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٥]، وقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣، ٦٤].

❊ وقيل لمن بادر إلىٰ الإيمانِ بالرسول ﷺ: ما الذي دعاك إلىٰ ذلك؟ فقال: رأيتهُ ما أمر بشيء فقال العقل: ليته لم يأمر به، ولا نهىٰ عن شيء فقال العقل: ليته أمر به(١).

الشَّرح

(١) ذكره الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله[١]، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، ويشرع الشريعة شيئاً بعد شيءٍ، حتىٰ أكمل الله دينه الذي بعث به، وجاءت شريعته أكمل شريعة، لم يبق معروف تعرف العقول أنه معروف إلا أمر به، ولا منكر تعرف العقول أنه منكر إلا نهىٰ عنه، **لم يأمر بشيء**=

[١] مفتاح دار السعادة (٢/٣٢٨).

فاستدلَّ بنور عقلِه وقوة بصيرتهِ على صدق الرسول باشتمال ما جاء به على الصلاحِ ودفع الفساد، وأن ذلك موافق للعقول السليمة.

❊ وقيل لبعض العارفين: بأي شيء يعرفُ الله؟، فقال: بذوق حلاوة الطاعاتِ، وتجرُّعِ مرارة المخالفات.

وهذا استدلال برهانيٌّ وجدانيٌّ، لمن وُفِّق لهذه الحال، يضطرُّ العبدَ إلى كمالِ الإيمان وزيادة اليقين؛ فإن من وجد حلاوة الطاعات والإيمان، وذاق لذة اليقين، وتألم إذا غلبته النفسُ الأمارةُ بالسوءِ على اقتحام بعض المعاصي، اضطره الأمرُ إلى معرفة الله ووحدانيته.

❊ وقيل لبعضهم: بأي شيء يُعرَفُ الله؟، فقال: بانتظام الأسباب على وتيرةٍ واحدة، ثم بتحويله لبعضها ومنع سببيته، وبإيجادِه أشياءَ بغير أسبابٍ تعرف.

وهذا صحيح، فإنه تعالى أجرى الأمورَ على أسبابها ومسبَّباتها قدرًا

الشَّرح

= **فقيل ليته لم يأمر به، ولا نهى عن شيء فقيل ليته لم ينه عنه**، وأحل الطيبات لم يحرم شيئاً منها كما حرم في شرع غيره، وحرم الخبائث لم يحل منها شيئاً كما استحله غيره، وجمع محاسن ما عليه الأمم، فلا يذكر في التوراة والإنجيل والزبور نوع من الخبر عن الله وعن ملائكته وعن اليوم الآخر إلا وقد جاء به على أكمل وجه، وأخبر بأشياء ليست في الكتب»[١].

[١] الجواب الصحيح (٦/٢٨٧).

وشرعًا؛ ليُعرفَ بذلك حكمتُه البالغة، ولينشط العاملون على أعمالهم التي ربطها الله بمسبِّباتها، وأجراها على سُنته، ثم إنه مع ذلك منع بعضَ الأسبابِ عن ترتب آثارها عليها، كما في معجزات الأنبياء الخارقةِ للعادة، وكرامات الأولياء.

وكذلك يُوجِدُ كثيرًا من الأشياء بغير الأسباب المعهودة، كما أوجدَ عيسى من أُمٍّ بلا أب، ويحيى بين أبوين لا يولدُ لمثلِهما.

وأشياءَ كثيرة من هذا النوع؛ ليعرِف العبادُ أنه المتصرِّفُ التصريفَ المُطلقَ، وأنه كما يتصرَّف بالأشياء بأسبابها المعلومةِ المرتبطةِ بها؛ كذلك يتصرف فيها بغير المعهودة.

ولهذا كان جمهورُ هذا النوعِ من المعجزات للأنبياء[١]، والكرامات للأولياء، وقد تكون لغيرِهم، وهي كلها براهينُ على وحدانية الله وإلهيَّتِه وربوبيته.

❊ وقيل لبعضهم: بم يُعرَفُ الله؟، فقال: من نظر في موادِّ الرزقِ، وتأمل حالة من لهم موجوداتٌ كثيرة، وعقارات وغلَّات كثيرة، ولكنهم قد اتكلوا عليها، فضاقت عليهم الأمور، وركبتهم الديون، وجاءت الأمورُ على خلاف ما يُؤمّلون[٢].

ثم نظر إلى أناسٍ كثيرين؛ ليس لهم عقاراتٌ ولا عندهم[٣] غلَّات ولا

---

[١] في (ط): معجزات الأنبياء.
[٢] في (ط): يأملون.
[٣] قوله (عندهم) ليس في (ط).

موجودات، وإنما يُسّرت لهم أسباب بسيطة[١]، لا تخطرُ ببالِ[٢] أحدٍ أن تكفيهم، ولكن الله بارك فيها، وبسط لهم الرزقَ، فكانوا أبسط قلوبًا، وأريحَ نفوسًا، وأرغد عيشًا من الأولين.

والسببُ في ذلك أنهم قاموا بالأسباب؛ متوكلين على مُسبِّبها، فقلوبُهم على الدوام متطلعةٌ إلى ما عند الله، راجيةٌ منه تسهيلَ الرزق، والأولونَ بالعكس: قلوبُهم متعلقةٌ بأملاكِهم وموجوداتِهم، فبذلك يُعرَفُ اللهُ، ويُعرفُ أن الأمرَ كلَّه للهِ.

وكذلك[٣] إذا نظرنا لكثير من الأقوياء الأذكياء العاملين ليلًا ونهارًا؛ تجد رزقهم مقتَّرًا، وأسبابَهم مُخفِقةً، ونجد كثيرًا من الضعفاء البُلَداء الذين ليس عندهم من القوة والذكاء ما عند الأولين، والله قد بسط لهم الرزقَ، ويسَّر لهم أمرهم، وهذا كله مشاهدٌ، يضطرُّ العاقلَ أن يشهد لله بالتصرف المطلق، وأن الأمر كلَّه لله.

❊ وقيل لآخر: بم يُعرف الله؟ فقال: بمداولته الأيامَ بين العباد في العزِّ والذلِّ، والغنى والفقر، بأسباب وبغير أسباب(١).

الشَّرح

(١) وقد أشارَ إلى ذلك ربنا سبحانه وتعالى بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

[١] أي يسيرة.
[٢] في (ط): على بال.
[٣] في (ط): لذلك.

❊ وقيل لآخر: بأي شيء يُعرَفُ الله؟ فقال: بمشاهدةِ مصداق قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود: ٦]، فتنظر مصداقها شاملًا للخليقة، وأن كلَّ أحد قد يسَّر الله له من أسباب الرزق ما به يعتاش:

هذا بتجارته، وهذا بصناعته، وهذا بحراثته، وهذا بعمله وخدمته، وهذا بمخلَّفات من قبله، وهذا بتنميةِ المواشي، وهذا بإحسانِ غيرِهِ عليه؛ بسؤالٍ وغير سؤال، وهذا بكدِّ غيره عليه، إلىٰ غير ذلك من الأسباب المعروفة، التي قدَّرها العزيزُ الحكيمُ رزقًا للعباد، فسبحان من وصل رزقه إلىٰ أصغر الذرات، في[١] مهَامِهِ البراري، وقعور البحور والظلمات.

❊ وقيل لبعضهم: بم يُعرَفُ الله؟ فقال: إن لمعرفة اللهِ أبوابًا وطرقًا كثيرةً جدًا، ومن جملتها ما هدىٰ الله له العباد في هذه الأوقات، من المخترعاتِ الكثيرة، وأعمالِ الكهرباء، وإيصالِ الأصوات والأنوار ونحوها إلىٰ مسافات شاسعة، وأمكنة متباعدة.

وهو الذي علَّم الإنسان، وهو الذي أقدرهُ علىٰ ذلك(١)، وهو الذي خلق له المواد والمعادن التي تُسْتَخرَجُ منها[٢] هذه الأشياء، وهداه إلىٰ تأليفها.

الشَّرح

(١) قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [آل عمران: ٢٦].

[١] في (ط): ومهامه.

[٢] في (ط): بها.

ومعلومٌ أنه خرج من بطن أُمهِ لا يعلمُ شيئًا، ولا يقدر على شيء، فعَلِم جميع هذه الأمور، وكانت هذه من جُملةِ منن الله عليه، وخالق[١] السبب هو خالق المسبَّب ﷻ.

فهذا أكبر برهانٍ على كمال قدرة الله الذي أقدر العبدَ الضعيفَ على هذه الأمور؛ التي تعد سابقًا من الأمور المحالة الممتنعة.

قلتُ: وهذه الأجوبة كلها عن الكليات والجزئيات صحيحة، تضطرُّ العقول إلى الاعترافِ بربها ووحدانيته، ويمكن مضاعفتُها إلى أضعاف كثيرة.

فإنك إذا نظرتَ نظرةً عمومية إلى العالم العلوي والسفلي وعظم هذه المخلوقات، وانتظامها العجيب، وتركيبها المحكم وترتيبها، وما ينتج عن ذلك من مصالح العالم والمخلوقات: عَلِمتَ أن لهذا العالَم ربًّا عظيمًا، ومَلِكًا كبيرًا، وقادرًا مقتدرًا، قد خَضَعَتْ له الأكوانُ، ودانت له الخليقةُ، وأخذ بنواصي العباد، وعلمتَ أن جميع[٢] ما في السماواتِ والأرض عبيدٌ ومماليك لربهم؛ ليس لهم من الأمر شيء.

ثم إذا نظرتَ إلى كلِّ مخلوق على حِدَته، وتأملت ما اشتمل عليه من الخلق العجيب والحِكَم الباهرة، ثم نظرتَ على وجه الخصوص إلى نفسِك وصفاتك، وما أُودِع فيها من الخلق العجيب والحِكَم الباهرة: عرفتَ أن الله هو الربُّ الخالق الرازق، المدبِّر لكل لشيء، الحكيم في كل شيء، قال

---

[١] في (ط): فخالق.

[٢] في (ط): كلَّ.

تعالىٰ: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠].

فجميعُ مخلوقات الله وجميعُ الحوادث التي يحدثها الله: آياتٌ وبراهينُ علىٰ أنه واحدٌ عظيم، ورب كريم، وملك جواد.

وكذلك إذا تأملت الشرعَ الكامل، وأن أخبارَه كلَّها صدقٌ، وقد قامت البراهينُ علىٰ صدقها، وأحكامَها كلَّها عدل، تأمر بالخير والصلاح، وتنهىٰ عن الشر والفساد، وتجري أحكامُها المحكَمةُ وحقوقها العادلة مع الأزمان؛ مهما تطورت الأحوالُ، واختلفت العوائد؛ لا يختلُّ صلاحها، ولا ينتقض هداها.

بل لا يكون هَدْيٌ وصلاحٌ وخير إلا بها، ولا تأتي بأمرٍ تحيله العقول، وتكذبه الحواس الصحيحة، بل تشهد العقول الكاملة أنَّ أحكامَها أحسنُ الأحكام، وأعدلُها وأقومها وأهداها.

أليس هذا أكبر برهانٍ علىٰ عظمة الله وقدرته، وسعةِ علمه وشمولِ حكمته ورحمته؟ وأنه المحمودُ في كلِّ حال؛ علىٰ خَلْقه للمخلوقات وعلىٰ شرعه الشرائع؟.

أحسنَ ما صنعه، وأحكمَ ما شرعه؛ ليس في ذلك عيبٌ وعبث، وليس فيها ما ينافي الحكمة بوجه من الوجوه: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

فصلٌ

ومن أعظم البراهينِ علىٰ وحدانيةِ الله ووجوبِ وجوده: ما دعت إليه الرسُلُ ـ صلواتُ الله وسلامه عليهم ـ أُمَمهم، ونبَّهتهُم علىٰ البراهينِ العقلية علىٰ ذلك، وأخبروهم خبرًا معلنين به ومتفقين عليه: أن وجود الرب أظهرُ من كل شيء، وأجلىٰ وأوضحُ من كل شيء، وأعلىٰ من كل شيء، وأنه لا يمكن أن يعترض ذلك شكٌّ ولا ريب بوجه من الوجوه، ولهذا قالت رسلهم جميعًا: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠][(١)].

وهذا استفهامٌ وإنكارٌ عظيم علىٰ من يشك أو يمتري بالله، وبيان أنه متقرر في عقول الخلق وفطرهم: أن وجودَ الله ووحدانيتَه أظهرُ الأشياء وأجلاها، وأن من شكَّ في ذلك فهو مباهِتٌ مكابِرٌ، غيرُ مبالٍ بمخالفة العقل والدين.

فإن جميعَ الأشياء ـ وجودَها وبقاءَها وحفظَها وحصولَ جميع كمالاتها ـ بالله تعالىٰ؛ فهو الأولُ الذي ليس قبله شيء، وهو الذي أوجد كلَّ شيء، ولهذا قالوا: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

فالذي خلق السمواتِ والأرض ـ العالمَ العلوي والعالم السفلي ـ، بما فيها من المخلوقات، أوجدها من العدم، وأبدعها وأتقن صنعها؛ لا ينكره

(١) هذا تابع للبرهان الرابع، وهو برهان الفطرة.

إلا من جُنَّت عقولهم، وانقلبت قلوبهم، وفسدت فطرهم، واختلفت آراؤهم.

وأكثرُ أعداء الرُسُلِ: مشركونَ معترفون بالرب وتفرده بالخلق، وذلك كقوم نوح وهود وصالح وغيرهم، ومنهم ملاحدةٌ مُعطّلون كفرعون(١)؛ إذ قال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]، على وجه الإنكار، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨].

الشَّرح

(١) فرعون من الملاحدة المعطِّلة، وقد وُجد الملاحدة في جميع العصور، فلا يخلو زمان من عدو مُبْغِض يسعى لهدم الإسلام وتشكيك المسلمين في عقيدتهم وشريعتهم، ولكن هذا العصر الذي نعيش فيه يختلف عن سالف الزمان، فالملاحدة قديمًا كان تأثيرهم محدودًا، وذلك نتيجةً لمحدودية وسائل التشكيك، وندرة القنوات الإعلامية، فلم يكن يقع في دائرة التأثير التشكيكي إلا فئة قليلة من الناس، وهم قُرّاء الكتب، ومن يجالس الزنادقة هنا وهناك، أما عامة الناس فكانوا بمنأى عن هذا التأثير، مطمئنين بعقيدتهم، سعيدين بيقينهم، يعبدون ربهم، وينشغلون بتحصيل أرزاقهم، شاكرين الله ﷻ على نعمه وآلائه.

ثم لم يزل الزمن يتقدّم، والعلم التجريبي يتطوّر، والإعلام ينفتح، حتى كثُرت وَسَائِل الإعلام، وظَهَرت وسائل التواصل الاجتماعي، وانفجر على الناس سيلٌ هادر من المعلومات والأفكار، بشكل غير مسبوق في التاريخ، فطَلَّت الأفكار اللادينية بقرنها وتغلغلت في وسائل الإعلام، والأفلام السنيمائية والمسلسلات، والبرامج الحوارية، ووسائل التواصل، ومقاطع في اليوتيوب وغيرها، كلها أصبحت مليئة مع الأسف الشديد=

وجميع الرسل ذكَّروا أممهم المكذِّبين، واحتجوا عليهم بخلق الربِّ للمخلوقات كلِّها، وأنه ربُّ العالمين، وربُّ الأولين والآخرين، وذكّروهم بكثرة النعم من الله عليهم، وكل رسول يقول لقومه: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [المؤمنون: ٢٣].

فاحتجوا عليهم وبرهنوا على ذلك بأنه الربُّ الخالق المدبر، المنعم بالنِّعم كلِّها، وأن من كان هذا وصفَه فهو المستحق لإخلاص العبادة له وكثرة[١] ذكره وشكره وحمده والثناء عليه.

وهذه كلُّها براهينُ عقلية لا ينكرها إلا من نبذ العقل والدين.

وكذلك ذكَّروهم بأيامِ اللهِ ووقائعهِ في الأُمم الطاغية، وذكروهم أن هذه

الشَّرح

= بالمضامين اللادينية والإلحادية، وأصبحت تسوق عبر وسائل التواصل: تويتر، والفيس بوك، ونحوِها.

السمة الثانية من السمات التي تُميز الإلحاد في هذا العصر عن الإلحاد قديمًا: أن الإلحاد الآن الذي يُسمى الإلحاد الجديد، أصبحَ هجوميًا شرسًا ولم يعد دفاعيًا، أصبح الإلحاد هو الذي يُهاجم، ويُهاجم الإسلام تحديدًا، ولذلك سدنة الإلحاد الحديث الآن المعروفون المشهورون، أغلبُ انتقاداتِهم الدينية توجه على الإسلام وتشويه صورته والكذب عليه؛ لذلك ينبغي أن يكون الدُعاة على بصيرة بهذا الأمر، ويجب أن تتضافر الجهود بين الدُعاة وطلبة العلم لردع هذا الخطر الداهم.

[١] في (ط): ولكثرة.

العقوبات ثمرةُ الكفرِ والتكذيب، وأنها نموذج من عقوبات الآخرة.

وهي عقوباتٌ ومَثُلات شاهدها الناسُ بأبصارهم، ومن لم يشاهدها فقد تناقلتها الأمم والقرون، وتواترت أخبارها.

ولهذا يجعل الله هذا النوعَ من الآياتِ العقليةِ الحسية؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٥]، ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الروم: ٩]، ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٧](١).

الشَّرح

(١) أمر الله ﷻ بالسير في الأرض والاعتبار من أحوال من سبقنا ممن كذبوا رسلهم للاعتبار والعظة، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١].

وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٩] «أي: أولم يسر هؤلاء المكذّبون بالله، الغافلون عن الآخرة من قريش في البلاد التي يسلكونها تجارًا، فينظروا إلىٰ آثار الله فيمن كان قبلهم من الأمم المكذّبة، كيف كان عاقبة أمرها في تكذيبها رسلها»[١].

وقال تعالىٰ عن مكان عذاب قرية لوط التي أُمطرت مطر السوء: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧ ـ ١٣٨].

[١] انظر: تفسير الطبري (٢٠/٧٨).

كمالات الأنبياء عليهم السلام

وكذلك ذكَّرتهم الرسل بما هم عليه من النصحِ الكامل، والعلمِ الواسع، والصدقِ، وأن جميعَ الرسل صلواتُ اللهِ وسلامهُ عليهم: أعلم الخلق، وأصدق الخلق، وأنصح الخلق للخلق، وأنهم معصومون محفوظون عن كلِّ وصف ذميم.

وذَكَروا من معجزاتهم وبراهين صدقهم ما يضطر العبادَ إلىٰ الاعتراف بأنهم أصدق الخلق، وأن كلَّ ما جاؤوا به فهو حقٌّ.

وأعظمُ ما دعوا إليه: توحيدُ الله ومعرفته، فجميع آيات الأنبياء ومعجزاتهم وبراهين صدقهم: من جملة الأدلة علىٰ وحدانية ربهم، وأنه الملك الحق المبين[1].

ثم إن الرسل صلواتُ اللهِ وسلامهُ عليهم ـ الذين هم أعلىٰ الخلق في كل علمٍ، وصدقٍ، وبيانٍ، وفضلٍ وكمالٍ ـ؛ قد اتفقت كلمتهم، واجتمعت دعوتهم علىٰ الأمر بتوحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، والاعتراف لله بوجوب الوجود والكمال المطلق.

وهذا أعظمُ الحقائق كلها، وهو التوحيد، قد أجمع عليه أكملُ الخلائق عقولاً وأديانًا وفضائل: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الجاثية: ٦ ـ ٨].

الشَّرح

(١) وهذا تابع للبرهان الثالث، وهو برهان آيات الأنبياء عليهم السلام.

ومن ذلك أنه شهد لنفسه ـ ومن أكبر منه شهادةً ـ أَن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

فالملائكةُ كلُّهم، وأهل العلم الصحيح الذين أئمتُهم وسادتهم الرُسُلُ، ثم العلماءُ الربَّانيون، والهداةُ المهتدون؛ شهدوا لله بالوحدانية، لم يتخلَّف منهم أحدٌ.

ومن زَعم أن عنده علمًا، ولم يشهد لله بهذه الشهادةِ؛ فإنه ليس بعلمٍ نافع، بل علم ضارٌّ، أثَّر في قلب صاحبه العلو والاستكبار، وهو العلم الموروث[١] عن أعداء الرسل الذين قال الله عنهم: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [غافر: ٨٣].

فأخبر تعالىٰ أن عند أعداء الرُسُل علومًا قاوموا بها علوم الرُسُل، ورضوا بها، واطمأنوا لها، واستهزأوا بما جاءتهم به الرُسُل، حتىٰ نزل بهم العذاب المحيط، والخزي الفاضح.

وهذا نظيرُ ردِّ الملاحدة والماديين لِمَا جاءت به الرُسلُ من التوحيد والإيمان، والسُخريةِ بها وبأتباعِها بأنهم رجعيُّون مقلدون، أتباعُ كل ناعق، وأنهم متخلفون عن ركب الإنسانية وما أشبه ذلك مما ينعق به سفهاء الأحلام ضعفاء العقول، الذين قلدوا الملاحدةَ في كلِّ ما يقولون ويفعلون، واغتروا

[١] في (ط): المورث.

بعلومٍ ماديةٍ دنيويةٍ لا تغني عن أهلها شيئًا حين فقدت الروحُ الدين، بل صار ضررها عليهم أكثرُ من نفعِها، وشرُّها عليهم أكثرُ من خيرها(١).

من أعظم أضرارها وشرورها عليهم: أنهم بها تكبروا على الحق وعلى الخلق، واحتقروا بها علومَ الرُّسُلِ وأتباعهم؛ التي هي النافعة المزكية للقلوب، المطهرة للأخلاق المصلحة للأمورِ كلها، الجالبةِ للخيرِ والهُدى، الدافعةِ للشرورِ كلها.

الشَّرح

(١) يستدل بعض الناس بالتقدم المادي للغرب على صحة دينهم!، وهذا استدلال عجيب وقول غريب، ونستطيع أن نقلب هذا القول على صاحبه فنقول: كان المسلمون قبل سنوات هم أهل التقدم والتطور في جميع المجالات، المادية وغيرها، وذلك باعتراف الغربيين أنفسهم، انظر مثلًا: كتاب المُستشرقة الألمانية زيجريد هونكه «شمسُ العرب تسطع على الغرب»، وكتاب المستشرق الشهير وليام مونتجمري واط «تأثير الإسلام في أوروبا القرون الوسطى»، فهل هذا يعني أن الإسلام كان صوابًا ثم تحوّل! هل يقول هذا عاقل؟!.

ونستطيع أن نقلب القضية كذلك فنقول: لما كان المسلمون متمسكين بدينهم كانوا في مقدمة الأُمم، فلما تراجعوا وخف تمسّكهم بدينهم تركوا الصدارة وأصبح غير المسلمين في الصدارة، فهذا يعني أن الإسلام هو الصواب، فالتقدم التقني والتطور المادي يناله من يأخذ بأسبابه، والإسلام يحثّ أتباعه على الأخذ بهذه الأسباب من الإتقان والعمل.

فهؤلاء الملاحدةُ ـ ومن قلَّدهم ـ: علومُهم نفخت فيهم روحَ الكبرياء، وصيَّرتهم بطورٍ غير طورهم، ورأوا بها العبادَ أخسَّ من الحيوان البهيم، وهم في الحقيقة الأرذلون(١).

ومن أضرارها عليهم: أنها ـ وإن رقَّت حضارتَهم ومدنيتهم ـ ولكنها حضارة ومدنية مادية محضة، مهددة كل وقت بالهلاك والتدمير.

فأي مدنيَّة وحضارةٍ روحُها الظلمُ والجشع واستعباد الضعفاء، والاستعداد بالأسلحة الفتاكة، المهلكة للحرث والنسل ونتائجها وثمرتها التطاحن بين أهلها؛ يصبُّ بعضهم على بعض العذابَ الفظيع؟(٢).

الشَّرح

(١) قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٧] أي إن الإنسان ليتجاوز حده، ويستكبر على ربه، فيكفر به، إذا رأى نفسه استغنت.

لقد أعمى التقدّم العلمي والتقني أبصارَهم عن رؤية ضعفهم وفقرهم وقوة الله تعالى وغناه، ووصل العمى مداه عندما ظنوا أنهم باكتشافهم قوانين الكون أصبحوا في غنى عن تدبير الخالق ﷻ، وقد أنتج هذا التصوّر الفاسد منهجًا من أخطر المناهج المنحرفة المؤسِّسة للشبهات الفكرية المعاصرة، وهو المنهج العلموي[١].

(٢) التقدم التقني والمادي أمرٌ حسن محمود، لكن المذموم فيه الطغيان، والاحتجاج بها على صحة الأفكار وبطلانها، أما ذات التقدم والتطور والاستفادة من الجديد فقد جاءت به الشريعة، فالنبي ﷺ في غزوة الخندق أخذ بأسباب التطور لما قبل مشورة سلمان الفارسي رضي الله عنه بأمر=

[١] انظر نقض هذا المنهج في كتاب ترياق (ص٩٥ ـ ١١٠).

فهل هذا إلا أكبرُ دليلٍ وبرهان على كمال قدرة الله وعدله وحكمته؟

وهذه الأمورُ من أيامه ووقائعه وعذابِه الأليم بين الناس، ولم تزدهم هذه المواعظُ والعبرُ إلا عتوًّا ونفورًا، فهم ينتقلون من عذاب شديد إلى أشد منه، وهم في طغيانهم يعمهون، بمدنيتهم الشنيعةِ آثارُها[١] يتمدحون، ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

ما أعظمها من عِبَرٍ لو أن القلوبَ واعية!، وما أدلها على كمال عدل الله وحكمته لو أنَّ الفهومَ صالحة!، ولكنَّ القلوبَ غُطّيت بأغشيةِ الغفلةِ والكبرياء والاغترار، والنفوس أقبلت على الأمور الضارة، قد خلبتها المناظرُ البراقةُ وسحرت الأبصار: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨]، ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣]، ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

وأما شهادته تعالى لنفسه بالوحدانية فقد نطقت بذلك جميعُ الكتب

الشَّرح

= لم يكن تعرفه العرب وهو الخندق، حتى قالت الأحزاب: والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها، فهذا نوع من التطور في الدفاع.

الله ﷻ أمرنا في كتابه الكريم بالأخذ بأسباب القوة، فقال: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

[١] في (ط): وآثارُها.

التي أنزلها على رُسُلِهِ، وأنطق بها رُسُلَه، واتفقت على ذلك دعوتُهم، وتبعهم على ذلك جميعُ أتباعهم من العلماء الربَّانيين والهداة، وجميع طبقات أهل العلم والإيمان.

وكذلك أقام على ذلك الشواهد النفسية والأفقية[1]، ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [فصلت: ٣٧].

والعالم العلوي والعالم السفلي كلها آياتٌ بيناتٌ، وبراهينُ قاطعاتٌ؛ على وحدانية خالقِها، ومدبرها، ومتقنِ صنعها، ومبدعِها بالخلقِ العجيب، والنظامِ الباهر، والحِكَم التي يعجز الفصحاءُ والبلغاء عن التعبير والإحاطة ببعض آياتها وبراهينها.

ومن شهادتهِ تعالى لنفسه بالوحدانية والتفرد بالعظمة والكمال: ما عجَّله لأنبيائه وأتباعهم من الآياتِ والمعجزاتِ، والنصر العظيم، والكرامات المتنوعة، والعواقب الحميدة، وما عجَّله لأعدائهم من الهلاك الخاص والعام، والمَثُلاتِ والأخَذاتِ الصوارم، والعواقبِ الوخيمة.

وكذلك ما تركه لأنبيائه وأصفيائه من لسان الصدق، والثناء العام المنتشر، والمحبة في قلوب الخلق، وما لأعدائِه من البُغضِ والذم، واللعنِ المتتابع، كلُّ ذلك آياتُ بينات على وحدانية الله وصدق رسله.

الشَّرح

(١) الشواهد النفسية في قولهِ تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، يعني في نفس الإنسان، والشواهد الأُفقية يعني في الكون.

قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٩]، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الصافات: ١٠٩]، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١٢٠ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٢٠، ١٢١]، ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الروم: ١٠].

ومن أعظم البراهين ـ الجامعةِ بين كونها نقليةً وعقليةً حسيةً ـ: إخبارُ الله في كتابهِ، وفي سُنّة رسوله ﷺ عن أمورٍ من الغيب كثيرةٍ جداً(١).

أمورٍ ماضية سابقة لوقت التنزيل، وأمورٍ حاضرة وقعت أيامَ الرسالة، وأمور مستقبَلةٍ لا تزال[١] تحدث شيئًا فشيئًا؛ موافقة مطابقة لما أخبر اللهُ به ورسولُه علىٰ الوجه الذي أخبر، وهي غير محصورة في أنواعها فضلًا عن أفرادها؛ تَستحقُّ أن يُفرد[٢] لها تصنيفٌ مستقل(٢).

فكل واحدٌ منها برهان، ثم هو مع الثاني ومع الثالث والرابع وما بعده؛ براهين متعددة، وكلها تضطرُّ الناظرَ فيها إلىٰ الاعتراف لله بالوحدانية ولنبيِّه بالرسالة، وأن جميعَ ما أخبر الله به وأخبر رسوله فهو حق لا ريب فيه.

الشَّرح

(١) هذا تابع للبرهان الرابع، برهان آيات الأنبياء عليهم السلام.

(٢) ممن أفردها بالتصنيف محمد ولي الله الندوي في كتاب «نبوءات الرسول ﷺ ما تحقق منها وما يتحقق»، ومحمود نصار في «جامع الروايات في تحقق نبوءات النبي ﷺ»، ومصطفىٰ أبو المعاطي في «نبوءات الرسول ﷺ»، والدكتور عبد الرحمن الحجي في «الإشارات والبشارات النبوية»، وممن أفرد بعضها الشيخ محمد عبد الحي الكتاني في رسالته «اليواقيت الثمينة في الأحاديث القاضية بظهور سكة الحديد ووصولها إلىٰ المدينة»، وأحمد بن محمد الصديق الغماري في «مطابقة الاختراعات العصرية=

[١] في الأصل: تزل.

[٢] في (ط): يصرف.

. . . . . .

الشَّرح

= لما أخبر به سيد البرية»، ورَدَّ عليه الشيخ حمود بن عبد الله التويجري في كتاب سماه: «إيضاح المحجة في الرد على صاحب طنجة»، ومن الكتب كذلك: «المعجزات النبوية في ذكر أحوال بعض النساء الغيبية» للدكتورة حنان اليماني.

أما إفراد فصول وأبواب لهذه النبوءات النبوية فكثير في كتب دلائل النبوة وغيرها.

التحدّي بالقرآن

ومن ذلك تحدي الله لجميعِ الإنس والجنِ على أن يأتوا بمثل هذا القُرآن، وإخبارُه أنهم لم يستطيعوا ولن يستطيعوا أن يأتوا بمثله، والتحدي قائمٌ في كل وقت، والعجزُ من الخلق ظاهرٌ، مع توفر دواعي الأعداء، وحرصهم الشديد على ردِّ ما جاء به الرسول، والقدح في رسالته.

وهذا برهانٌ عظيمٌ يضطرُّ كلَّ عاقلٍ معه إنصافٌ أن يعترفَ بالحق الذي قامت البيناتُ الظاهرة والدلالات الباهرة على صدقهِ من كل وجه؛ ولله الحمد[1].

الشَّرح

(١) هذا تابع للبرهان الرابع، برهان آيات الأنبياء عليهم السلام.

الآثار الجليلة المترتبة على رسالة محمد ﷺ

ومن براهين وحدانية الله وصدق ما جاء به محمد ﷺ الآثارُ الجليلة التي نشأت وترتبت على رسالة محمد ﷺ، فإنه بعث في أُمة أُمية، ولأرض مملوءة من الجهل والشرك والشرور المتفاقمة، فهداهم الله به من الضلالة، وعلَّمهم به بعد الجهالة، واستقامت أخلاقهم وصلحت أعمالهم، وامتلأت الأرض من الخير والهدىٰ والصلاح، وانتشرت الرحمة والعدل، وتم به الفلاح والنجاح.

وفتحت القلوبُ بالعلوم النافعة والمعارف الصحيحة والإيمان، وأظهر الله دينه علىٰ سائر الأديان وانتشر، وقَبِلَتْه القلوبُ المستقيمة في جميع الأقطار، وزهق به كل باطل ومحال.

ولم يزل أهلُه ظاهرين علىٰ غيرهم حين كانوا مستمسكين به، وقائمين حق القيام به، حتىٰ حصل الانحراف من أهله في العقائد والأخلاق، والأعمال الدينية والدنيوية، فزالت عنهم بذلك آثارُه الجليلة وتبدّلوا بأضدادها.

أفليس في هذا أكبرُ برهانٍ علىٰ أن هذه الشريعة شَرَعها العزيز الحكيم، ونصرها الرب العظيم؟، وأن الخيرَ كلَّه ملازمٌ لها وتابع لتعاليمها وأخلاقها؟، وأنها تنزيلٌ من حكيم حميد؟، وأن أخبارها كلها صادقة تشهد العقول بصدقها؟.

ولم يأتِ منها خبرٌ واحدٌ صحيح يناقض الواقعَ ويخالف المحسوسَ؛ فإنها لا تأتي بما تحيله العقولُ، وربما أتت بما تحارُ فيه العقولُ ولا تهتدي

إليه؛ لأن في الشريعة من التفاصيلِ العظيمةِ الخبريةِ والحُكميةِ ما لا تصل إليه عقول العقلاء، ولا تهتدي إليه فطنة الفطناء(١).

الشَّرح

(١) قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢]، فالشريعة الإسلامية لا تأتي بما يخالف العقول، والنقل الصحيح لا يعارض العقل الصريح، بل باجتماعِ النقلِ الصحيح والعقلِ الصريح تُدْرَكُ الحقائق الشرعيَّةُ؛ فلا النقلُ وحده يُفِيدُ فاقدَ العَقْلِ، ولا العقلُ وحده يُفِيدُ فاقدَ النَّقْل، فلا بد من اجتماعهما، وبنقصِ واحدٍ منهما تَنْقُصُ المعرفةُ بالحَقّ.

وليس في العقل الصريح ولا في شيء من النقل الصحيح من القرآن والسنة ما يوجب مخالفة الشرع أصلاً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «كل ما يدل عليه الكتاب والسنة فإنه موافق لصريح المعقول، والعقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح، ولكن كثيراً من الناس يغلطون إما في هذا وإما في هذا، فمن عرف قول الرسول ومراده به كان عارفاً بالأدلة الشرعية وليس في المعقول ما يخالف المنقول»[١].

وقال أيضًا رحمه الله: «ونحن نعلم أنَّ الرُّسل لا يُخبِرون بمحالات العقول، بل بمُحارات العقول، فلا يُخبِرون بما يَعلمُ العقل انتفاءَه، بل يُخبِرون بما يَعجِز العقلُ عن معرفته»[٢]. =

[١] مجموعة الرسائل والمسائل لشيخ الإسلام ابن تيمية (٣/٦٤).
[٢] درء تعارض العقل والنقل (١/١٤٧).

ولم يأتِ علمٌ صحيحٌ أو نظريةٌ صادقةٌ متفقٌ عليها بين العقلاء تناقض ما جاء به الرسولُ محمدٌ، وهل في البراهين اليقينية أعظم من هذا البرهان وأوضح من هذا البيان؟: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، صدقًا في أَخْبَارها، وعدلًا في أحكامها وشرائعها.

الشَّرْح

= وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: «الرسل صلوات الله وسلامه عليهم لم يخبروا بما تحيله العقول وتقطع باستحالته بل اخبارهم قسمان:

أحدهما: ما تشهد به العقول والفِطَر.

الثاني: مالا تدركه العقول بمجردها، كالغيوب التي أخبروا بها عن تفاصيل البرزخ واليوم الآخر وتفاصيل الثواب والعقاب، ولا يكون خبرهم محالًا في العقول أصلًا.

وكل خبر يظن أن العقل يحيله فلا يخلو من أحد أمرين:

ـ إما أن يكون الخبر كذبًا عليهم.

ـ أو يكون ذلك العقل فاسدًا، وهو شبهة خيالية يظن صاحبها أنها معقول صريح.

قال تعالى ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦]، وقال تعالى ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ [الرعد: ٢٦]»[١].

وانظر: كتاب ترياق[٢].

[١] الروح، لابن القيم (ص ١١٢).

[٢] (ص ٦٣ ـ ٦٨).

من محاسن الشريعة

ومن براهين[١] وحدانية الله وصدقِ رسوله وحقيقة ما جاء به: أن الشريعةَ كلَّها محكمةٌ في غاية الحسن والانتظام، متصادقة أخبارها، متفقة حقائقها، معتدلة[٢] أحكامها؛ لا يمكن للبَشَرِ أن يقترحوا مثلها في الحسنِ، وموافقتِها لكل زمان ومكان، ومجاراتِها لجميع الأحوال، وجريانِها على الهدى والرشد والسدادِ والصلاح، لا تناقضَ فيها ولا اختلاف، ولا عبث ولا نقص ولا اختلال(١).

الشَّرح

(١) من أعظم منن الله تعالى على خلقه أن بعث إليهم الأنبياء والرسل يهدونهم من الضلالة إلى الهدى، ويُخرجونهم من الظلمات إلى النور، وكان خاتم هذه الصفوة التي اصطفاها الله ﷻ محمدًا ﷺ، فقد ختم الله ﷻ به هذه السلسلة المباركة، سلسلة الأنبياء والرُسل، وقد أرسله الله إلى الناس كافة، على حين فترةٍ من الرسل، وفي زمنٍ كانت البشرية فيه في أدنى حالاتها من جميع النواحي؛ فبعثه الله ﷻ في قلب جزيرة العرب؛ ليشع نورهُ على البشرية جمعاء، فلم يتجاوز ﷺ في دعوته التي بعثه الله ﷻ بها ثلاثًا وعشرين سنة حتى قلب الموازين، وبدَّل الله ﷻ به الأحوال، وأشرقت الأرض بعد ظُلمتها.

ومن المحاسن التي جاء بها ﷺ **تحرير العقول** التي كانت مستعبَدةً للخرافة والشِّرك، يعبُد مخلوقٌ مخلوقًا مثله ويخضع له، ولم يقتصر الأمر على =

[١] في (ط): ومن البراهين على.

[٢] في (ط): متعادلة.

. . . . . .

الشَّرح

= العرب فقط، بل كان الظلام في العالم كله شرقًا وغربًا، رومًا وفُرسًا؛ فالعرب كانوا يعبدون أشياء صنعوها بأيديهم إما من تمر، وإما من حجر، وإما من غيرهما، ثم يعبدونها!، فجاء النبي ﷺ وقشع هذا الظلام، ظلام الاستعباد، وانغلاق العقل، وانحطاط الإنسان بأن يكون عبدًا لمخلوقٍ مثله.

أما النصارىٰ فقد اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، عبدوا عيسىٰ بن مريم عليه السلام وهو بريءٌ منهم، وبريءٌ من عبادتهم، كما قال الله ﷻ ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦].

أما اليهود فقد اتخذوا عزيرًا ابنًا لله، وعبدوا غير الله ﷻ من دون الله، فجاء النبي ﷺ، وواجه هذا التيار الضخم، تيار الشِرك، وعبودية غير الله ﷻ، وبعونٍ من الله ﷻ ومدده استطاع أن يبُث النور في قلب جزيرةٍ كانت مليئةً بالظلام.

وصل الحال ببعض العرب إلىٰ أن يدفن ابنته وهي حية، كما قال ﷻ: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨، ٩]، استطاع النبي ﷺ أن يغيِّر بشرًا كانوا يدفنون أكبادهم تحت الأرض، يدفن أحدهم ابنته وهي تبكي=

. . . . . .

الشَّرح

= وتصيح ويُهيل عليها التراب؛ استطاع النبي ﷺ أن يُغيِّر هؤلاء، وأن يُرقق قلوبهم.

عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه كان مهيبًا تخافه الرجال ولا يخاف أحدًا، محاربًا شُجاعًا، فلما دخل الإسلام رقَّ قلبُه حتىٰ إنه أحيانًا يعجز عن إتمام قراءته في الصلاة لشدة بكائه.

أما الناس في هذا العصر فما أحوجهم إلىٰ تعاليم النبي ﷺ، فالموءودة التي كانت تشتكي في عُصور الجاهلية من القتل لا زالت تُقتل ولكن تحت اسم الإجهاض في الدول التي تدَّعي أنها متحضّرة.

ما الفرق بين الإجهاض بعد نفخ الروح وبين وأد البنات؟، ما الفرق؟، هذه روح وهذه روح، هذه نفس وهذه نفس، ولكنهم مع الأسف الشديد رجعوا إلىٰ ما كانت الجاهلية عليه، فما أحوجهم إلىٰ دين محمد ﷺ.

ومن المحاسن التي جاءت بها الشريعة ما قدَّمه النبي ﷺ للبشرية جمعاء **بما يحفظُ عقولهم** من تحريم المخدراتِ، والمُسكراتِ والخمور، وكانت الخمر مُعظَّمةً عند العرب، حتىٰ جاء النبي ﷺ واستأصل هذه العادة الخبيثة التي تُحوِّل الإنسان العاقل إلىٰ ما هو أدنىٰ من البهيمة؛ فحرّم الخمر بحكمة الله ﷻ وبالتدريج حتىٰ سكبوها في سِكك المدينة لمَّا نزل قول الله ﷻ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠]، كم من نفسٍ قُتلت بسبب الخمر؟، كم عرضٍ=

. . . . . .

الشَّرح

= انتهك بسبب الخمر؟، كم من جريمة اقترفت بسبب الخمر؟، وهذا لا يخفىٰ علىٰ أحد.

حتىٰ هذا اليوم في إحصائيات الوفيات وإحصائيات الجرائِم، تتصدر أسباب هذه الجرائِم: المخدرات، والخمور، والمُسكرات، فإذا نظرنا إلىٰ حال العالم اليوم نجده قد ولغ في الخمور، بل في بعض الدُول حتىٰ المُخدرات مسموحة، ثم لا تسل بعد ذلك عن الاغتصابات، والقتل، وعن الجرائِم.

أما شريعةُ محمدٍ ﷺ التي جاء بها من الله ﷻ فهي ترتقي بالإنسان عن هذا المستوىٰ المُنحط إلىٰ مستوىً يُحافظ فيه علىٰ عقله؛ فحرمت الخمر ومنعت كُل أسبابه.

قال ﷺ «لعن الله في الخمر عشرة: عاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه، وساقيها، وشاربها»[١]، فحرَّم ولعن ﷺ كُل من ساعد الناس علىٰ إذهاب عقولهم، حتىٰ ولو لم يشربها هو؛ ولكن لأن للعقل مكانة في الدين عظيمة، ولأنه هو الجوهرة التي يتميز بها الإنسان عن الحيوان، حافظ عليه الإسلام.

فما أحوج جميع البشر لشريعة محمد ﷺ حتىٰ يُخففوا من الجرائم التي عندهم، حتىٰ تعود إليهم عُقولهم التي سلبوها بأيديهم ثم ينتهكون أعراضهم، ويُزهقون دماءهم تحت مُسمىٰ الحُرية، فهذا جزء مما قدمه=

[١] رواه أبو داود (٣٦٧٤) وابن ماجه (٣٣٨٠) وصححه الألباني.

وكلما أمعن فيها العالِمُ البصيرُ عَلِم أنها أصدقُ الأخبار وأنفعها للقلوب، وأنها أحسنُ الأحكامِ وأصلحها في عباداتها ومعاملاتها، وتفاصيلها للحقوق الخاصة والعامة، قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[١] [النساء: ٨٢].

فنبّه الله أولي الألباب والعقولِ علىٰ هذا البُرهانِ العظيمِ، الذي هو من أعظم البراهين وأوضحها وأجلاها على أنه من عنده، وأنه حقٌّ كله، وأن ما ناقضه فهو الباطل، قال تعالىٰ: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦].

أَمَا جاء هذا الدين بكل صدقٍ وصدَّقَ الصادقين؟، أَمَا زجر عن الكذبِ وأبعد الكاذبين؟.

أما حثَّ علىٰ العدلِ الكاملِ في حقوق الله وحقوق العباد؟، أما نهىٰ عن الظُلمِ والجورِ والشرورِ كلها والفساد؟.

الشَّرح

= النبي ﷺ للبشرية في تحرير عقولهم.

ويجب علىٰ المسلمين أن ينشروا أنوار شريعة محمد ﷺ لمن يحتاجها، فهم والله في أمَسِّ الحاجة إليها، ونحن المُسلمون كذلك في أمسِّ الحاجة لأن نتمسك بها، فلا عِز ولا كرامةَ، ولا شرفَ لنا إلا بهذه الشريعة وبهذا الدين، فإذا ما تركناه وأدرنا ظُهورنا إليه فسنكون أقل من مستوىٰ البهائِم، نسأل الله السلامة والعافية.

[١] سقطت آخر كلمة من الآية (كثيرًا) من الأصل.

أما تأسسَ على الإيمانِ والإخلاصِ والتوحيد؟ ونهى عما يُنافي ذلك من الشركِ والتنديد؟.

أما أمر ببرِّ الوالدينِ وصلة الأقارب؟ والإحسانِ إلى الجيرانِ والمساكين؟ والإحسانِ إلى عموم الخلق؛ حتى البهائم العُجم؟، وأخبر أنه يحب المحسنين؟.

أما أمر بوفاء العهود والعقود والوعد والأيمان؟ ونهى عن الغدر والنكث والعدوان؟.

أما حثَ على فعل الأسباب النافعة في الدنيا والدين؟ وأمرنا ألا نعتمدَ عليها بل نعتمدَ على مسبِّبها ونرجوَ فضل رب العالمين؟.

أما أحل لنا جميعَ الطيباتِ وحرَّم علينا كلَّ خبيث؟ وحثنا على كل أمر نافع وحذرنا عن المضار؟.

أما أمر بالصبرِ على المكاره؟ والشكرِ عند المحابِّ والمسار؟.

أما نهانا عن الهلع والجزع والجبن والخور والأخلاق الرذيلة؟ أما حثنا على القوة والشجاعة والعفة وجميع الأخلاق الجميلة؟.

أما أمر بكُلِّ معروف شرعًا وعقلًا وفطرةً؟، ونهانا عن كل منكر شرعًا وعقلًا وفطرةً؟.

فما أمر بشيء إلا رآه أهل العقول السليمة أحسنَ الأمورِ وأعدلَها، ولا

نهىٰ عن شيء إلا عن أقبحِ الخصالِ وأرذلِها.

وضَّح العقائدَ الصحيحةَ النافعةَ التي لا تصلح القلوب إلا بها، وأوجبها وجعلها أساسًا تنبني عليه الأقوالُ والأفعالُ، وأمورُ الدين والدنيا، وجاء بالأخلاقِ الفاضلةِ والأعمالِ الصالحة التي تُصْلِح الأفرادَ والجماعات، وتستقيم بها العباداتُ والمعاملات.

فأيُّ خيرٍ وهدىٰ وصلاح عاجل وآجل لم يبينه ويدعُ[١] إليه؟، وأيُّ شرٍّ وفساد وضرر عاجلٍ وآجلٍ لم يحذِّر عن طرقه ومسالكه؟.

وأيُّ أصلٍ من أصوله، وقاعدةٍ من قواعده، وخبرٍ من أخبارِهِ، وحكمٍ من أحكامهِ ناقضته العلومُ الصحيحة أو خالفته العقولُ والنظم المستقيمة؟.

بل قامت البراهينُ التي لا تُنْقض علىٰ أن كُلَّ شيء أُسِّسَ علىٰ غيره فهو ضرر وخراب، وكُلَّ بناءٍ علىٰ غير تعاليمه وأحكامه فآخره الانهيارُ والتباب[٢]، وكلُّ نظام استُمِدَّ من غيره فعواقبه وخيمة.

لأن الذي شرعهُ عالمُ الغيب والشهادة العزيز الحكيم، الذي أحاط بكل شيء علمًا، ووسع كل شيء رحمةً وبرًا، وكَفَلَ لمن قام به واستقام عليه بالسعادةِ والفلاح، وضَمِنَ لمن تعبّد به ودان لله به الثواب والنجاح.

فهو أكبرُ البراهينِ علىٰ عظمة الله ووحدانيته وسلطانه، وأعظمُ الآيات

---

[١] في الأصل: يدعوا.

[٢] التباب: الخسارة والهلاك.

الدالة على حكمته وحمده ووجوده[١] وامتنانه، فهو الهدى والرحمة والشفاء والنور، وهو الرشاد والصلاح لكلِّ الأمور: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦]، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۖ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[٢] [الأنعام: ١١٥].

فلهذا القُرآنِ وهذه الشريعةِ: أكملُ الصفاتِ وأجلُّ النعوتِ، ومَخْبَرُها ـ في جميع مواردها ومصادرها ـ يفسِّر هذه الأوصافَ الجليلةَ التي لا سعادة للبشر إلا بعلمها وسلوكها والاهتداء بأنوارِها، والتحقق بحقائقها وأسرارِها(١).

الشَّرح

(١) النبي ﷺ من أعظم نعم الله ﷻ على البشرية جمعاء، فقد قدَّم النبي ﷺ للبشرية ما لو تمسكوا به وعملوا بمقتضاه لنالوا سعادة الدنيا والآخرة،=

[١] في(ط): وجوده.

[٢] قد سقطت بعض الكلمات من هذه الآيات من الأصل، وسقط قوله تعالى: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ من (ط) وهو مثبت في الأصل.

. . . . . .

الشَّرح

= ومما جاء به النبي ﷺ لهذه البشرية هذه الشريعة السمحة العظيمة، **الشريعة التي تحكم بين الناس في جميع شؤون حياتهم**، في معاملاتهم، وفي عباداتهم، وفي سياستهم، وفي قضائِهم، وفي نكاحهم، وفي طلاقهم؛ كل هذه الأبواب قد جاءت الشريعة فيه بما لا تنتظم الحياة على الحقيقة إلا به.

هذه الشريعة التي قال الله ﷻ عنها: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، هذه الآية أنزلها الله ﷻ على نبيه محمد ﷺ ختامًا لما قدَّمه النبي ﷺ على مدى ثلاث وعشرين سنة من تبليغ الشريعة، وصفها الله ﷻ بالكمال.

هذه الشريعة الناظِر فيها يجد أنها تحافظ على الضروريات الخمس التي لا تستقيم الدنيا إلا بها: حفظ الدين، وحفظ العقل، وحفظ النفس، وحفظ المال، وحِفظ العِرض، هذه الأمور الخمسة قد جاءت الشريعة بما يحفظها، وبما يردعُ من تسول له نفسهُ أن يخدشها أو يقدح فيها.

من محاسِن هذه الشريعة العظيمة: أنها وإن نزلت قبل ألفٍ وأربعمائِة سنة؛ إلا أنها صالحة لكل زمان، ولكل مكان، ولكل قوم؛ وذلك لأن الله ﷻ جعل في كتابه العظيم وأوحى إلى نبيه الكريم ﷺ قواعد عامة يستطيع البشر أن يسيروا على ضوئها في كل زمان ومكان، هناك أبواب فصَّل الله ﷻ فيها.

إذا نظرت إلى الميراث مثلًا: فقد جاء القرآن الكريم بأدق التفاصيل فيه: الثُمن، والربع، والعُشر في جميع الحالات؛ لذلك انتظم الميراث=

. . . . . .

الشَّرح

= عند المُسلمين بما لا خلاف فيه في الجملة، وإذا نظرت إلىٰ الطلاق وإلىٰ الزواج جاءت الشريعة أيضًا بالتفاصيل، ولكن في أبواب أخرىٰ كأبواب البيع والشراء لا نجد في كتاب الله ﷻ إلا قواعد عامة، كحُرمة الرِبا مثلًا، وكمنع الغِش والخداع، وكمنع أكل أموال الناسِ بالباطل، كقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾ [النساء: ٢٩].

أما ما عدا ذلك فقد أوكله الله ﷻ للبشر؛ أين يبيعون ويشترون؟، ما هي النقود التي يبيعون ويشترون بها؟، كيف يُصَّنِعون؟، أين يُصَّنِعون؟، كُل ذلك قد أوكله الله ﷻ إلىٰ الناس، ووضع قواعد عامة، وشروطًا تشمل كل أنواعِ البيوع من التزم بها صحَّ بيعه، وصحَّت معاملته؛ ومن خالفها فسد بيعهُ وبطلت معاملته، وهذا من حكمة الله ﷻ في هذه الشريعة، وهكذا في كل أبواب الحياة.

فليست الشريعة كما يظن بعض الناس وكما يُروَّج أنها خاصة بالفرد؛ بل تشمل الفرد والمجتمع، فيجب علىٰ الأفراد ان يُحكِّموا شريعة الله ﷻ في أنفسهم وبلادهم، ولا انفصالَ ولا انفكاك بين ما يُطبَّقُ علىٰ الأفراد وما يُطبَّقُ علىٰ الدولة، وهذا أمرٌ يجب أن يُستوعب ويجب أن يدعو إليه كُل مُسلِم يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله. =

. . . . . .

الشَّرح

= أما المنافقون: فقد ذكر الله ﷻ شيئًا من صِفاتهم في كتاب الله، ومن هذه الصِفات عدم رغبتهم في شريعة رب العالمين.

قال الله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦٠، ٦١].

آية صريحة في كِتاب اللهِ في سورة النِساء: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٦١]، «إلىٰ الكتاب وإلىٰ السُنة»؛ ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١]، فعلينا إخواني الكرام أن ننأىٰ بأنفسنا عن صِفات المنافقين، وأن ندعو إلىٰ شريعة ربنا وكتابه ﷻ وسُنة نبينا ﷺ.

صدق الرسل عليهم السلام

فصلٌ

ومن براهين وحدانية الله[١] وكماله وتوحّده بالعظمة والكمال: أنه قد ثبتت[٢] بالبراهين والآيات المتنوعة ـ التي لا يمكن إحصاؤها ؛ لا[٣] إحصاء أنواعها ، ولا أفرادها ـ صدقُ الرُسُل ، وأن ما جاءوا به هو الحق ، وخصوصاً إمامُهم وسيدهم محمد ﷺ(١) .

وأنه يجب على الخلق أن يعرفوا قَدْر الأنبياءِ ، وتميزَهم عن أصناف الخلق بكل أوصاف الفضائل ، وأن الإيمان بهم ومحبتهم وتوقيرهم وتبجيلهم من أفرض الفرائض وأهم[٤] الواجبات .

وأنه يجبُ أن يكون لهم في قلوب العباد من العظمة والخضوع لما جاءوا به ما يضمحِلُّ معه جميعُ المقالات ، وأن لا تُعارض أقوالهم بمعقولاتٍ أو قياساتٍ أو ذوقياتٍ ، أو غيرها مما ينتمي إليه أهل الباطل ، بل أقوال الرُسُل لا يتم للعبد إيمانٌ ولا إسلامٌ حتى يجعلها هي الأصلَ الأصيلَ ، والأساسَ الذي يُردُّ إليه كل شيء .

الشَرح

(١) هذا تابع للبرهان الثالث ، برهان آيات الأنبياء عليهم السلام .

[١] في (ط): وحدانيته .
[٢] في (ط): ثبت .
[٣] كذا في الأصل بدون واو العطف .
[٤] في (ط): وأوجب .

وقد عُلِم أن زبدةَ دعوتِهم وأساسها: الدعوة إلىٰ توحيد الله ومعرفته، وإلىٰ عبوديته وإخلاص العمل له، وقد قامت البراهينُ التي لا تعارض ولا تمانع علىٰ صدقهم، وصحة ما جاءوا به[١].

فتعيَّن علىٰ كل مكلَّف ـ له دين أو عقل ـ أن يعترفَ بما جاءوا به بغير قيد ولا شرط؛ لأن الأصلَ صحيحٌ، والأساسَ ثابتٌ ثبوتًا يقينيًا، والمعارضات كلها باطلة؛ لأن ما عارض الحق فهو باطل، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢].

فمن خَضَع لمعقولاتِ المتحذلقين، أو نظريات المبطلين، وقدمها علىٰ ما جاءت به الرسل؛ فقد برهن علىٰ نقصان عقله، بل فقده لدينه، هذا كلُّه مع التنزُّل علىٰ فرض وجود معقولاتٍ تنقض[٢] ما جاءت به الرسل!؛ فكيف والمعقولاتُ الصحيحة تؤيدُ ما جاءت به الرسل، وهي من أكبر الشواهد علىٰ صدقهم، وإنما تقع المعارضة بين معقولات أُناس سفهاء الأحلام، متكبرين بمعلوماتهم وآرائهم الضئيلة، والله المستعان.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «آياتُ الأنبياء مما يعلم العقلاء أنها مختصة بهم؛ ليست مما تكون لغيرهم، فيعلمون أن الله لم يخلق مثلها لغير الأنبياء، وسواء في آياتهم التي كانت في حياة قومهم، وآياتهم التي فرَّق الله بها بين أتباعهم وبين مكذبيهم؛ بنجاة هؤلاء وهلاك هؤلاء؛ ليست من جنس

---

[١] انظر: كتاب ترياق (ص ٨٩).

[٢] في (ط): تناقض.

ما يوجد في العادات المختلفة لغيرهم.

وذلك مثل تغريق الله لجميع أهل الأرض إلا لنوح ومن ركب معه في السفينة، فهذا لم يكن قطُ في العالم نظيره.

وكذلك إهلاك قوم عاد إرم ذات العماد، التي لم يُخلق مثلها في البلاد، مع كثرتهم وقوتهم وعظم عماراتهم[١] التي لم يُخلق مثلها في البلاد، ثم أهلكوا بريحٍ صرصرٍ عاتية؛ مسخرة عليهم سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيامٍ حسومًا، حتىٰ صاروا كأنهم أعجازُ نخلٍ خاوية، ونجا هودُ ومن اتبعه، فهذا لم يكن له نظيرٌ في العالم.

وكذلك قومُ صالح؛ أصحاب مدائن ومساكن في السهل والجبل وبساتين، أهُلكوا كُلُّهم بصيحة واحدة، فهذا لم يوجد نظيره في العالم.

وكذلك قومُ لوطٍ أصحابُ مدائن متعددة؛ رفعت إلىٰ السماء ثم قُلبت بهم[٢]، وأُتبعوا بحجارةٍ من السماء تتبع شاذَّهم، ونجا لوط وأهله إلا امرأته أصابها ما أصابهم، فهذا لم يوجد نظيرهُ في العالم.

وكذلك قوم فرعون وموسىٰ، جمعانِ عظيمان ينفرق لهم البحر؛ كلُّ فِرْق كالطَّود العظيم، فيسلك هؤلاء ويخرجون سالمين، فإذا سلك الآخَرون انطبق عليهم الماء، فهذا لم يوجد نظيرهُ في العالم.

---

[١] في (ط): عمارتهم، والمثبت من الأصل و(النبوات).

[٢] في (ط): عليهم، والمثبت من الأصل و(النبوات).

فهذه الآياتُ تعرِف العقلاءُ عمومًا أنها ليست من جنس ما يموتُ به بنو آدم، وقد يحصل لبعض الناس طاعونُ ولبعضهم جدبٌ[١] ونحو ذلك، وهذا مما اعتاده الناس وهو من آيات الله من وجه آخر، بل كلُّ حادث من آيات الله، ولكن هذه الآيات ليست من جنس ما اعتيد.

وكذلك الكعبةُ؛ فإنها بيتٌ من حجارة بوادٍ غير ذي زرع، ليس عندها أحد يحفظها من عدو، ولا عندها بساتينُ وأمورٌ يرغب الناس فيها، فليس عندها رغبةٌ ولا رهبةٌ، ومع هذا فقد حفظها بالهيبة والعظمة، فكل من يأتيها يأتيها خاضعًا ذليلًا متواضعًا في غاية التواضع، وجَعَلَ فيها من الرغبة ما يأتيها الناس من أقطارِ الأرض محبةً وشوقًا من غير باعث دنيوي، وهي على هذه الحال من ألوف من السنين، وهذا مما لا يُعرفُ في العالم لبنْية غيرها، وهذا مما حيَّر الفلاسفةَ ونحوهم.

وكذلك ما فعل اللهُ بأصحاب الفيل لما قصدوا تخريبها، قصدها جيشٌ عظيم ومعهم الفيل، فهرب أهلها منهم[٢]، فبرك الفيل وامتنع من[٣] المسير إلى جهتها[٤]، وإذا وجَّهوه إلى غيرها توجَّه، ثم جاءهم من البحر طَيْرٌ أَبَابِيلَ، أي: جماعات في تفرقةٍ؛ فوجًا بعد فوجٍ، رَموا عليهم حصى هلكوا به[٥]

[١] في (ط): جربٌ، والمثبت من الأصل و(النبوات).
[٢] في (ط): منها، والمثبت من الأصل و(النبوات).
[٣] في (ط): عن، والمثبت من الأصل و(النبوات).
[٤] في (ط): جهاتها، والمثبت من الأصل و(النبوات).
[٥] في (ط): بها، والمثبت من الأصل و(النبوات).

كلُّهم، فهذا مما لم يوجد نظيرهُ في العالم، فآيات الأنبياء هي آيات وأدلة على صدقهم»[١].

ومن هذا سُنّة الله في الفرق بين الأنبياء وأتباعهم وبين مكذبيهم، ثم ذكر الآياتِ في إهلاك المكذبين للرُسُل ونجاة الرُسُل.

قال: «وهذه الأخبار كانت منتشرة ومتواترة في العالم، وقد علم الناس أنها آيات للأنبياء وعقوبة لمكذبيهم؛ ولهذا يذكرونها عند نظائرها للاعتبار، والقُرآن آيته باقية على طول الزمان؛ من حين جاء به الرسول ﷺ، تتلى آيات التحدي فيه[٢] ويتلى قوله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٨].

فنفسُ إخبارِ الرسول ﷺ بهذا في أول الأمر، وقطعُه بذلك، مع علمه بكثرة الخلق: دليلٌ على أنه كان خارقًا يُعجِز الثقلين عن معارضته، وهذا لا يكون لغير الأنبياء، ثم مع طول الزمان قد سمعه الموافقُ والمخالف، والعربُ والعجم، وليس في الأُممِ من أظهر كتابًا يقرأه الناس وقال إنه مثله.

وهذا يعرفهُ كُلُّ واحد، ما من كلامٍ تكلَّم به الناس ـ وإن كان في أعلى طبقات الكلام لفظًا ومعنى ـ إلا وقد قال النَّاسُ نظيرهُ وما يشبهه ويقاربه، سواء كان شعرًا أو خطابةً أو كلامًا في العلوم، والحكمة، والاستدلال، والوعظ، والرسائل، وغير ذلك، وما وجد من ذلك شيء إلا وُجد ما يُشبهُه ويقاربه.

[١] كتاب النبوات، لشيخ الإسلام ابن تيمية (١/٤٨٥ ـ ٤٨٨) بتصرف يسير جدًا من المؤلف رحمه الله.
[٢] في النبوات: به.

والقُرآنُ مما يعلم الناسُ عربُهم وعجمُهم أنه لم يوجد له نظير؛ مع حرص العرب وغير العرب على معارضته.

فلفظه آية، ونظمه آية، وإخباره بالغيوب آية، وأمره ونهيه آية، ووعده ووعيده آية، وجلالته وعظمته وسلطانه على القلوبِ آية، وإذا تُرجم بغير العربي كانت معانيه آية؛ كل ذلك لا يوجد له نظير في العالم»[١]. إلى آخر ما قال رحمه الله.

[١] كتاب النبوات، لشيخ الإسلام ابن تيمية (١/٤٩١ ـ ٤٩٣) بتصرف يسير من المؤلف رحمه الله.

فصلٌ

ومن البراهين العقلية على وحدانية الله وصدق رُسُله: أن الرُسُلَ كلهم ـ وخصوصًا إمامهم وخاتمُهم محمدٌ ﷺ ـ قد جاؤوا بالحقِ النافع، فأخبارهم كلُّها حقٌ وصدقٌ، وأحكامهم كلُّها حق وعدل وحكمة، فلم يبق حق إلا جاءوا به وبيَّنوه وحثُّوا الخلق عليه، ولا باطل إلا وضَّحوه وحذَّروا الخلق عنه.

وهذا الأصل متفَقٌ عليه بين جميع المعترفين بالنبواتِ اعترافًا صحيحًا؛ فمن ادعى عقلًا ومعقولًا يناقض هذا الأصلَ الذي جاءت به الرُسُلُ عرفنا يقينًا أن معقوله فاسد، وأن دعواه باطلة؛ فإن العقلَ الصحيحَ لا يخالف الحق الصريح.

ومما يوضح هذا ويؤيده: أن الحق الذي جاءت به الرُسُلُ ـ خبرًا وحكمًا ـ حقٌّ واضحٌ معلومٌ معصومٌ؛ لا ينقسم إلى محمودٍ ومذمومٍ؛ بل كلُّه حقٌّ محمود، وأما ما ادَّعاه المخالفون للرُسُل من المعقولات؛ فإنهم يعتمدون على المعقولات التي تنقسمُ إلى حق وباطل، ومحمود ومذموم باتفاق العقلاء.

وأهلها مع ذلك متباينون تباينًا عظيمًا؛ كلُّ طائفة لها معقولات تنصرها وتقدحُ في معقولات غيرها[١]، وهم في خبطٍ وخلطٍ، واختلافٍ[٢]

[١] في (ط): غيرهم.
[٢] في (ط): وخلاف.

لا ينضبط ، قال تعالىٰ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٥].

فهل اتِّباعُ هؤلاء الضالين الجاهلين المتخبطين أولىٰ من اتِّباعِ رُسُل الله الذين هم أعلم الخلق ، وأهدىٰ الخلق ، وأصدق الخلق ، وأفضل الخلق ، وأعلاهم في كل صفة كمال وقد سلموا من كل نقص وعيب وعثرة ، وقد عُصِموا في أقوالهم وأفعالهم ، وقد أُنزلت عليهم الكتب العظيمة من الرب العظيم ؛ التي هي مادة الهُدىٰ ومنبع الرحمة والخير والرشد والنور ، وأصل السعادة والفلاح ؟.

وقد نوَّع الله البراهين الدالة علىٰ صدقهم ، وصحة ما جاءوا به ، وأنه الحق وما سواه ضلال ، وأنه نور ورحمة وخير ، وما سواه ظلمات وشرور وفساد: ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الجاثية: ٦ ـ ٨].

أما والله لقد وضحت السبل للسالكين ، وظهرت براهينُ الحق وآياتُه للموقنين ، وبان الهدى والنور اليقين للمستبصرين ، وقامت الحُجةُ على المعاندين.

ولهذا كان جميع الأشقياء المخالفون للرُسل يعترفون بأنهم خالفوا الرسل وخالفوا العقل ، فقالوا: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠، ١١].

ومن البراهين العقلية علىٰ وحدانية الله وغناه ، وافتقار الخليقةِ كلها

إليه: ما فَطَرَ اللهُ عليه عباده، وخصوصًا خواصَّ الخلقِ من الأنبياء والرسل؛ أئمةِ الهدىٰ ومصابيحِ الدُّجىٰ، وأهلِ العقول الوافية والألبابِ الرزينة، الذين هم الطبقة العُليا من الخلق.

فإنهم فُطروا علىٰ الاعتراف الكامل بوحدانية الله، وأنه المقصود المعبود في كل الأحوال، وصار هذا الأمرُ في قلوبهم أعظمَ الحقائق كُلِّها، وأوضحَها وأجلاها، وهي علوم بديهية ضرورية لا يمكن أحدًا دفعُها(١).

وليس عند المُنكِر لذلك ما يدفع هذا العلمَ اليقينيَّ والطريقَ البرهانيَّ، إلا عَدمُ علمه بذلك؛ لفساد إدراكه[١]، واشتغاله بالعقائد الفاسدة، وإعراضه عن طلب الهدىٰ.

ومن المعلوم المتفق عليه بين العُقلاء: أن عدمَ العلم بالشيء ليس من الشُّبَه في شيء، فضلًا عن أن يكون بُرهانًا يدفع أقوىٰ البراهين وأجلها وأصدقها من العالِمين الموقنين؛ الذين هم أعظم الخلق علومًا، وأبلغهم يقينًا، وأصدقهم وأبرَّهم عقولًا وأصفاهم أفئدة(٢).

الشَّرح

(١) وهذا تابع للبرهان الرابع، وهو برهان الفطرة.

(٢) يُشير المؤلف رحمه الله إلىٰ مغالطة منطقية شهيرة يقع فيها المبطلون تسمىٰ مغالطة «الاحتكام إلىٰ الجهل»، وهي جعل الجهل بوجود الدليل دليلًا علىٰ بطلان الشيء! وهذا خطأ محض. =

[١] في الأصل: وإدراكه.

فهذا اليقين في قلوب هؤلاء ـ الذين هم سادات الأولين والآخرين ـ لا يساويه ولا يقاربه شيء؛ ولهذا قالت الرسل لأممهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ۝٦ وَيۡلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الجاثية: ٦ ـ ٨].

فهذا العلم اليقيني البديهي الضروري المتفقُ عليه بين أهل العلم واليقين، وأعلىٰ الخلق في كل صفة كمال، وهو أعلم علم عندهم وأوضحه وأجلاه: محالٌ وممتنع أن يقاربه علمٌ بشيء من الحقائق اليقينية أصلًا؛ فمن شك فيه أو تردد فقد برهن علىٰ نفسه بالجهل والضَّلال والحُمق، وهو مكابرة واضحة، والله الموفق.

الشَّرح

= إذا تقرّر هذا تبين لنا خطأ من يردُّ آيةً من كتاب الله تعالىٰ أو حديثًا من أحاديث النبي ﷺ لمجرّد أنه لم يدرك مدلولها بحواسه!، وهذا جهل وسطحية في التفكير؛ **لأن عدم العلم ليس علمًا بالعدم، وعدم الوجدان لا يعني عدم الوجود**، أي إنك إذا لم تجد أمرًا ولم تدركه بحواسك فلا يعني أنه غير موجود، ولا يحق لك أن تحكم بأنه غير موجود، ومثال ذلك إنكار النصوص الشرعية الواردة في عذاب القبر بحجة عدم إدراكها بالحواس!. وبطلان ذلك واضح للعيان.

وانظر: كتاب ترياق[١].

[١] (ص ٧٠ ـ ٧٦).

ومن أعظم البراهين علىٰ أن الحق هو ما جاء به الرسول محمد ﷺ في جميع الحقائق الصحيحة النافعة: الإجماعُ من جميع المسلمين ومن جميع من عرف حال النبي ﷺ أنه أعلمُ الخلق علىٰ الإطلاق بالله وبالحقائق النافعة، وأعظمُهم بيانًا، وأوضحُهم عبارةً، وأفصحُهم وأنصحُهم للخلق.

وهذه الأمورُ إذا كمُلت ـ وقد كمُلت ـ علىٰ وجه الكمال التامِّ في محمد ﷺ؛ بحيث لا يُدانيه ولا يُقاربه أحدٌ في العلم والبلاغةِ والنصح؛ عُلِم يقينًا ضروريًا أن جميع ما جاء به هو الحقُّ الذي لا ريب فيه.

لا سيَّما في باب التوحيد، وبيانه العظيم في أن لله الأسماء الحسنىٰ والصفات الكاملة العليا؛ التي تفرد بها وتوحد، ولم يشاركه فيها مشارك، وهذا وحده برهان كافٍ شافٍ لمن له أدنىٰ عقل أو ألقىٰ السمع وهو شهيد.

فيا عجبًا! لمن يعارض ما جاء به هذا النبيُّ العظيم الذي جاء بشريعة ما طَرَق العالمَ أعظمُ منها ولا أكملُ ولا أصحُّ بأقوال الماديين الذين سَفُهت أحلامهم وفَسَدت عقولهم، واتضح أن جميع ما عرضوا به الأديان جهل وضلال ومكابرة صريحةٌ، وذلك معروف بالتتبع لجميع المسائل التي عارضوا فيها الرُسُل.

قال تعالىٰ في حقِّهم وحق أمثالِهم: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [غافر: ٨٣][(١)].

الشَّرح

(١) عند مُقارنة حال النبي ﷺ وأخلاقه الشريفة العظيمة بحال مَن يُحارب=

. . . . . .

الشَّرح

= الدين ، أو مَن يُستدلُ بأقواله على مُحاربة الدين تجد البون شاسعًا ، والفرق كبيرًا بين أخلاق المصطفى ﷺ التي ثبتت عندنا بشكلٍ قطعي حتى مع من يسيء إليه ، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه بردٌ نجرانيٌّ غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابيٌّ ، فجبذه بردائه جبْذَةً شديدةً ، حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ قد أثَّرت بها حاشية البُرْد مِن شدَّة جَبْذَته ، ثمَّ قال: يا محمَّد! ، مُرْ لي مِن مال الله الذي عندك! ، فالتفت إليه رسول الله ﷺ ثمَّ ضحك ، ثمَّ أمر له بعطاء[١] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رجلًا أتى النَّبيَّ ﷺ يتقاضاه فأغلظ ، فهمَّ به أصحابه ، فقال رسول الله ﷺ: «دعوه فإنَّ لصاحب الحقِّ مقالًا» ، ثمَّ قال: «أعطوه سِنًّا مِثْل سِنِّه ، قالوا: يا رسول الله ، لا نجد إلَّا أمثل مِن سِنِّه ، فقال: أعطوه ، فإنَّ مِن خيركم أحسنكم قضاءً»[٢] .

وعن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ مِن أحسن النَّاس خُلُقًا ، فأرسلني يومًا لحاجة ، فقلت: والله لا أذهب ، وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به نبيُّ الله صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم ، قال: فخرجت حتى أمرَّ على صبيان وهم يلعبون في السُّوق ، فإذا رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ، قابضٌ بقفاي مِن ورائي ، فنظرت إليه وهو يضحك ، فقال: «يا أنيس! اذهب حيث=

[١] رواه البخاري (٣١٤٩).

[٢] رواه البخاري (٢٣٠٦).

. . . . . .

الشَّرح

= أمرتك»، قلت: نعم، أنا أذهب يا رسول الله، قال أنس: والله لقد خدمته سبع سنين أو تسع سنين ما علمت قال لشيء صنعتُ: لم فعلتَ كذا وكذا؟، ولا لشيء تركتُ: هلَّا فعلتَ كذا وكذا؟[١]، إلىٰ غير ذلك من النماذج الكثيرة العظيمة في سمو أخلاق النبي ﷺ.

بالمقابل نجد رموز الملاحدة من أسوء الناس خُلقًا وحالًا، فهذا كارل ماركس زعيم الشيوعيين متناقض لا يطابق قوله فعله كما وصفه الأديب عباس العقاد[٢]، فقد وصفه بالتناقض الواضح بين ما يريد ماركس تطبيقه علىٰ غيره وهو غير مطبق علىٰ نفسه، وذلك في مبدأ أن من لا يعمل لا يأكل في حين أن ماركس كان عالة علىٰ أهله، وعلىٰ أبيه الذي كان يطلب منه المال الكثير بغير فائدة ولا صنيع ينتفع به، وحتىٰ عند وصوله لسن الرابعة والعشرين بقي عالة علىٰ أمه وأخواته، مما دفع أمه أن تكتب له قائلة: إنه لا ينتظر بالبداهة أن يعيش طفيلياً أبدياً وهددته بقطع المعونة عنه، بل تعدىٰ ذلك إلىٰ الاحتيال بدلاً من العمل، فقد اتفق في سنة ١٨٤٤ مع لسكي laske لتأليف كتاب حول الاقتصاد وعلاقته بالسياسة، وأخذ ثمن الكتاب ألفاً وخمسمائة فرنك، ولم يقم بإظهار الكتاب! واتفق في عام ١٨٥٨ مع ناشر آخر يدعىٰ الهر دنكر Dunker ولم يظهر الكتاب أيضاً!

كذلك جان جاك روسو وهو من كِبار من يسمون بالفلاسفة التنويريين، =

[١] رواه مسلم (٢٣١٠).

[٢] انظر كتاب أفيون الشعوب، لعباس العقاد (ص ٢٦ ـ ٣٣).

. . . . . .

الشَّرح

= وقد ألّف كتابًا عن تربية الأطفال والقيم العائلية وأهمية العائلة في المجتمع واسمه «أيميل» وهو الذي لم يتزوج عشيقته! وأنجب منها خمسة أولاد!، ثم رمىٰ بهم في ملجأ الأيتام![١]، وقد ترجم له محمد حسين هيكل في كتاب سماه: «جان جاك روسو: حياته وكتبه» وذكر جملة من صفاته، والتي منها: السرقة[٢]، والكذب[٣]، والحمق، والشهوانية[٤]، والدياثة[٥]، والبخل[٦]، والأنانية[٧]، والغرور[٨]، والتناقض[٩]، .. إلخ!

هذه نماذج من رؤوس الإلحاد والمادية في هذا العصر الحديث، وشَتَّان بين الثرىٰ والثريّا.

❁ ❁ ❁

[١] انظر كتاب جان جاك روسو، حياته وكتبه، لمحمد حسين هيكل (ص ٥٥).
[٢] (ص ٢٥، ٣١، ٤٨).
[٣] (ص ٣١، ٤٧).
[٤] (ص ٣٣).
[٥] (ص ٤٣).
[٦] (ص ٤٣).
[٧] (ص ٨٣).
[٨] (ص ٨٥، ١٧٢).
[٩] (ص ١٠٧).

والحاصل

أن جميعَ الموجودات، وجميعَ الحوادث والمعارف والحركات، أدلةٌ وبراهينُ علىٰ وحدانية ربِّ الأرضِ والسماوات:

مَن الذي أنشأ المخلوقاتِ من العدم؟.

مَن الذي دبَّر الأمورَ وصرَّفها؟.

مَن الذي خلقَ السماواتِ والأرض وحفظها بقدرتهِ وأمسكها؟.

مَن الذي خلقَ الآدميَّ من نطفة فإذا هو خصيمٌ مُبين؟.

مَن الذي أماتَ وأحيا وأسعدَ وأشقىٰ وأهلكَ الأُممَ الطاغيةَ بأنواع المَثُلاتِ ونجَّا الرُسُلَ وأتباعهم؟.

إن في ذلك لعبرًا وبراهينَ واضحات.

مَن الذي خلقَ الحبَّ والنوىٰ وفجَّرَ الأرضَ بالأنهارِ والعيون؟، أليس ذلك من آثارِ مَن يقولُ للشيءِ: كُن، فيكون؟.

مَن الذي أعطىٰ كُلَّ شيءٍ خلقَهُ اللائقَ بهِ؛ ثم هدىٰ كُلَّ مخلوقٍ علىٰ مصالحهِ التي لا يصلحُ له سواها؟.

مَن الذي عَلَّمَ العلومَ المتنوعةَ والفنون؟.

مَن الذي أخرجَ الثمارَ الرَّطْبَةَ من يابس الغصون؟.

مَن الذي أحكمَ الأشياءَ بغاية الحكمة وكمال الانتظامِ وأتقنها؟.

مَن الذي أحسنَ كُلَّ شيءٍ صنعه؟، وشرعَ الشرائعَ وجعلها في غاية الهُدىٰ والصلاحِ وأتقنها؟.

مَن الذي سيَّر السحابَ الموقَرَةَ بالمياهِ العظيمة، فأصابَ بها البلادَ والعباد؟، أليسَ ذلكَ الذي يُعيدُ الخلقَ بعدَ موتِهم إلىٰ يومِ الحشرِ والتناد؟.

يا عجبًا؛ لنفوسٍ تُنكرُ الربَّ والبعثَ؛ ما أضلَّها وأعماها!، كيف لا تعترفُ بهذه القضيةِ التي هي أعظمُ القضايا وأوضحُها وأجلاها؟!.

إلهٌ عظيمٌ لم يزل إلهًا، ومَلِكٌ كبيرٌ مُلْكُه لا يتناهىٰ، شَمِلَ العالمينَ برحمتهِ ورزقهِ، فلا يتركُ ذرةً ولا ينساها.

يسمعُ أنينَ المُدْنِفين[١]، ويُجيبُ أسئلةَ السائلين، ويجودُ بمغفرتهِ ورحمتهِ علىٰ التائبين.

فنسألُكَ يا الله!، بأسمائك الحُسنىٰ وأوصافك العُليا، أن ترزقنا إيمانًا كاملًا، ويقينًا صادقًا، وتنفعنا بآياتِك المسموعةِ، وآياتِك المشهودة، وآياتِك الأُفقيةِ، وآياتِك النفسية؛ فإنها براهينُ للموقنينَ، وآياتٌ للمستبصرينَ، وحجةٌ علىٰ المعاندين والمكابرين، ورحمةٌ مِنكَ، وإحسانٌ علىٰ الخلقِ أجمعين.

اللهمَ صلِّ وسلّم وبارك علىٰ مُحمدٍ، وعلىٰ آلهِ وأصحابهِ وأتباعهِ إلىٰ

[١] المدنفون: من بهم مرض يلازمهم.

يومِ الدين، واغفر لنا ولوالدينا ولجميعِ المُسلمين، الأحياءِ مِنهم والميِّتين. آمين.

بخط عبد الله السليمان السلمان ٢٠ جمادىٰ الآخرة ١٣٧٠ هـ

قال ذلك الفقير إلىٰ الله عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين[١].

[١] آخر سطر بخط الشيخ عبد الرحمن السعدي ﷺ المعروف.

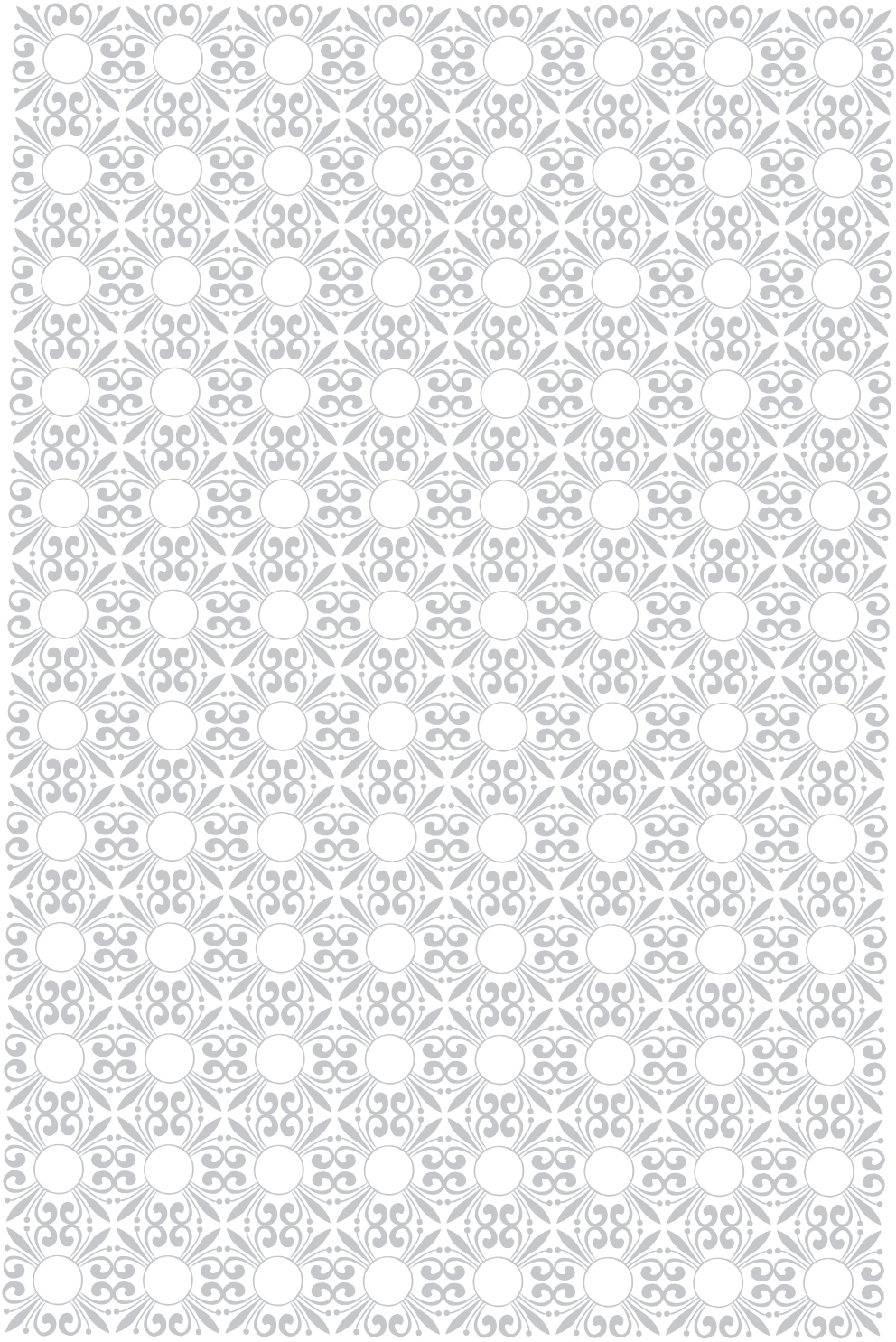

قائمة المراجع

١. أساس البلاغة، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت: ٥٣٨هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

٢. الإلحاد للمبتدئين، للدكتور هشام عزمي، دار الكاتب للنشر، ط٢، ٢٠١٥م.

٣. أولية العقل: نقد أطروحات الاسلام السياسي، عادل ضاهر، دار أمواج، بيروت، ٢٠٠١م.

٤. البرهان في أصول الفقه، لأبي المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، الملقب بإمام الحرمين (ت: ٤٧٨هـ)، تحقيق: صلاح بن محمد بن عويضة، دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان، ط ١، ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧ م.

٥. تاج العروس من جواهر القاموس، لمحمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني الزَّبيدي (ت: ١٢٠٥هـ)، الناشر: دار الهداية.

٦. تاريخ الكويت السياسي، لحسين خلف خزعل، ط ١، ١٩٦٢م، دار ومكتبة الهلال.

٧. تحريم النظر في كتب الكلام، لموفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي الحنبلي (ت: ٦٢٠ هـ)، تحقيق: عبد الرحمن دمشقية، دار عالم الكتب، الرياض، ١٤١٠ هـ.

٨. تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن، لأبي اسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، (ت: ٤٢٧هـ)، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، ط ١ ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢ م.

٩. التفسير والمفسرون، للدكتور محمد حسين الذهبي، مكتبة وهبة، القاهرة.

١٠. تلبيس إبليس، لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي (ت: ٥٩٧ هـ)، تحقيق: د. أحمد المزيد، دار الوطن، ط١، ٢٠٠٢م.
١١. تلخيص السفسطة، لأبي الوليد ابن رشد (ت: ٥٩٥هـ)، تحقيق: محمد سليم سالم، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٣م.
١٢. التوضيح لشرح الجامع الصحيح، لسراج الدين أبي حفص عمر بن علي بن أحمد الأنصاري الشافعي، المعروف بابن الملقن، (ت: ٨٠٤ هـ)، تحقيق دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، القاهرة.
١٣. جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري)، للإمام محمد بن جرير بن يزيد الطبري (ت: ٣١٠هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط١، ١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١ م.
١٤. الجامع الصحيح (صحيح البخاري)، محمد بن إسماعيل البخاري، (ت ٢٥٦هـ)، دار الشعب، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م.
١٥. جامع بيان العلم وفضله، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (ت: ٤٦٣هـ)، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط ١، ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤ م.
١٦. الجامع لشعب الإيمان، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت: ٤٥٨هـ)، تحقيق: عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد بالرياض، بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي، ط١، ١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٣م.
١٧. جان جاك روسو: حياته وكتبه، لمحمد حسين هيكل، مكتبة المعارف، القاهرة.
١٨. جمع الجيوش والدساكر علىٰ ابن عساكر، لجمال الدين يوسف بن حسن بن عبد الهادي، الشهير بابن المبرد (ت: ٩٠٩هـ)، تحقيق: حسين مانع القحطاني، دار العقيدة، المدينة المنورة، ١٤٣٩ هـ.

١٩. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (ت: ٧٢٨هـ).
٢٠. الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة، لقوام السنة إسماعيل بن محمد بن الفضل بن علي التيمي الأصبهاني، (ت: ٥٣٥ هـ)، تحقيق: محمد بن ربيع بن هادي عمير المدخلي، ومحمد بن محمود أبو رحيم، دار الراية، الرياض ـ السعودية، ط ٢، ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٩ كتاب النبوات، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (ت: ٧٢٨هـ).
٢١. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت: ٤٣٠هـ)، الناشر: السعادة، مصر، ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م، تصوير وإعادة نشر دار الكتاب العربي، بيروت.
٢٢. درء تعارض العقل والنقل، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (ت: ٧٢٨هـ)، تحقيق: الدكتور محمد رشاد سالم، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، ط٢، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.
٢٣. دفاعًا عن السوفسطائيين، الدكتور الطيب بوعزة، مركز نماء للبحوث والدراسات، ط١، ٢٠١٧م.
٢٤. ذم الكلام وأهله، لشيخ الإسلام أبي إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي بن مت الأنصاري الهروي (٤٨١ هـ)، تحقيق: عبد الله بن محمد بن عثمان الأنصاري، مكتبة الغرباء الأثرية، ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨ م.
٢٥. الرد على الزنادقة والجهمية فيما شكّت فيه من متشابه القرآن وتأولته على غير تأويله، للإمام أحمد بن حنبل (ت: ٢٤١ هـ)، تحقيق: د. دغش العجمي، دار الإمام البخاري، الدوحة، قطر، ط ١، ١٤٢٩ هـ.
٢٦. رسالة إلى أهل الثغر، لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر الأشعري (ت: ٣٢٠ هـ)، تحقيق: عبد الله شاكر الجنيدي، دار الصفا والمروة، الاسكندرية،

ط ٥ ، ١٤٢٨ هـ ـ ٢٠٠٧ م.

٢٧. رسالة بيان خاتم النبيين لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (ت: ٧٢٨هـ) ، تحقيق: نادر بن عمر بلطه جي ، دار المقتبس ، ط ١ ، ١٤٤٢ هـ.

٢٨. الرسالة ، للإمام محمد بن إدريس بن العباس الشافعي (ت: ٢٠٤هـ) ، تحقيق: أحمد شاكر ، مكتبة البابي الحلبي ، مصر ، ط١ ، ١٣٥٨هـ ـ ١٩٤٠م.

٢٩. الروح ، للإمام محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي ، المعروف بابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ) ، دار الكتاب العربي ، بيروت.

٣٠. زاد المسير في علم التفسير ، لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت: ٥٩٧هـ) ، المكتب الإسلامي ـ بيروت ، ط ٣ ، ١٤٠٤ هـ.

٣١. السفسطائية وأثرها في مدارس الشك ، للدكتور عبد الرحمن عواجي ، مركز دلائل ، ط١ ، ١٤٣٩هـ.

٣٢. سنن ابن ماجه ، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت: ٢٧٣هـ) ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون ، دار الرسالة العالمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٣٠ هـ ـ ٢٠٠٩م.

٣٣. السنن الكبرىٰ ، للإمام أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي ، (ت: ٣٠٣ هـ) ، تحقيق: مركز البحوث بدار التأصيل ، الناشر: دار التأصيل ـ القاهرة ، ط١ ، ١٤٣٣ هـ ـ ٢٠١٢ م.

٣٤. شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ، لأبي القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائي (ت: ٤١٨ هـ) ، تحقيق: أحمد بن سعد الغامدي ، دار طيبة ، الرياض ، ط ٩ ، ١٤٢٦ هـ ـ ٢٠٠٥ م.

٣٥. شرح السنة ، لأبي محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (ت: ٥١٦هـ) ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد زهير الشاويش ، المكتب الإسلامي ، ط٢ ، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

٣٦. شرح صحيح البخاري ، لأبي الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (ت: ٤٤٩هـ) ،

تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد ـ السعودية/ الرياض، ط ٢، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م.

٣٧. صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت٢٦١هـ)، دار الجيل، بيروت، ١٣٣٤هـ.

٣٨. صفة الفتوى والمفتي والمستفتي، لنجم الدين أحمد بن حمدان بن شبيب بن حمدان الحراني الحنبلي (ت: ٦٩٥ هـ)، تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ١٣٨٠ هـ.

٣٩. الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، للإمام محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، المعروف بابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ)، تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة، الرياض، ط١، ١٤٠٨هـ.

٤٠. العدة في أصول الفقه، للقاضي أبي يعلى محمد بن الحسين بن محمد بن خلف ابن الفراء (ت: ٤٥٨هـ)، تحقيق: د. أحمد بن علي سير المباركي، ط ٢، ١٤١٠ هـ ـ ١٩٩٠ م.

٤١. العقيدة التدمرية، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (ت: ٧٢٨هـ)، تحقيق: محمد السعوي، مكتبة العبيكان.

٤٢. علماء نجد خلال ثمانية قرون، للشيخ عبد الله بن عبد الرحمن البسام، ط. دار الميمان، ط ٣، ١٤٤٠ هـ.

٤٣. عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، لأبي العباس شهاب الدين أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (ت: ٧٥٦ هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٦ م.

٤٤. الغنية عن الكلام وأهله، لأبي سليمان حمد بن محمد الخطابي (ت: ٣٨٨ هـ)، دار الإمام البخاري، قطر ـ الدوحة.

٤٥. فتح الباري شرح صحيح البخاري، للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني

(ت: ٨٥٢هـ)، إخراج وتصحيح: محب الدين الخطيب، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩ هـ.

٤٦. فصل في «الكلام» الذي ذمه الأئمة والسلف، ضمن جامع المسائل، الملد التاسع، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (ت: ٧٢٨هـ)، ط. عطاءات العلم.

٤٧. فطرية الإيمان: كيف أثبتت التجارب أن الأطفال يولدون مؤمنين بالله؟، للدكتور جاستون باريت، ترجمة وإصدار: وأصدره مركز دلائل.

٤٨. كتاب العين، لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت: ١٧٠هـ)، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

٤٩. كتاب ترياق: نحو معالجة تأصيلية للشبهات الفكرية، لمطلق بن جاسر الجاسر، جمعية مرتقى العلمية، ١٤٤٢ هـ ـ ٢٠٢١ م.

٥٠. كشف الأسرار شرح أصول البزدوي، لعلاء الدين عبد العزيز بن أحمد بن محمد، البخاري الحنفي (ت: ٧٣٠هـ)، دار الكتاب الإسلامي.

٥١. الكشف عن مناهج الأدلة، لأبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد (ت: ٥٢٠ هـ)، تقديم: محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، ط ٤، ٢٠١٤ م.

٥٢. لسان العرب، لجمال الدين محمد بن مكرم بن على ابن منظور الإفريقى (ت: ٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.

٥٣. لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية، لشمس الدين محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي (ت: ١١٨٨هـ)، ط ٢، ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م.

٥٤. مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ)، جمع وتحقيق: عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد، الناشر مجمع الملك فهد، المدينة المنورة، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

٥٥. المستصفى في علم الأصول، لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت: ٥٠٥ هـ)، تحقيق: د. محمد بن سليمان الأشقر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧م.

٥٦. المسند، للإمام أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت: ٢٤١هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠١م.

٥٧. المصنف، لأبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت: ٢١١هـ)، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الناش: المجلس العلمي في الهند، ط٢، ١٤٠٣هـ.

٥٨. المعجم الفلسفي الصادر عن مجمع اللغة العربية في القاهرة، ١٤٠٣هـ.

٥٩. مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة، للإمام محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، المعروف بابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ)، تحقيق: علي حسن عبد الحميد، دار ابن عفان.

٦٠. من هنا بدأت الكويت، لعبد الله بن خالد الحاتم، المطبعة العصرية، لبنان، ط ٣، ٢٠٠٤م.

٦١. مناقب الإمام أحمد، لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت: ٥٩٧هـ)، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، ط ٢، ١٤٠٩هـ.

٦٢. مناقب الشافعي، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت: ٤٥٨ هـ)، تحقيق: السيد أحمد صقر، مكتبة دار التراث ـ القاهرة، ط ١، ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠ م.

٦٣. النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير (ت ٦٠٦هـ)، تحقيق: طاهر أحمد الزواوي ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

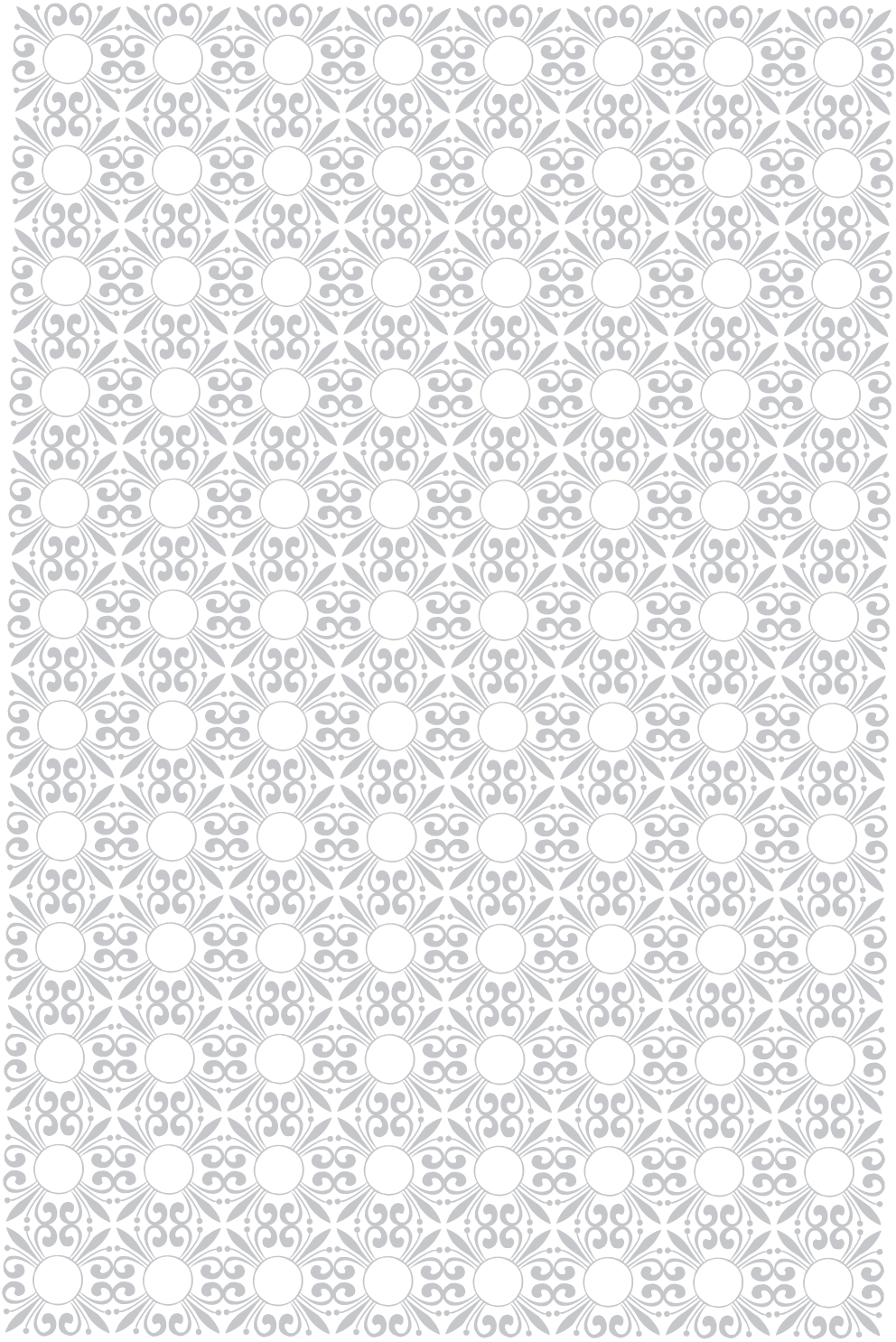

فهرس الموضوعات

الموضُوع	الصَّفحة
المقدمة	٥
المقدمة الأولى: ترجمة المؤلف الشيخ عبد الرحمن السعدي	٩
المقدمة الثانية: جهود علماء الأمة المعاصرين في مواجهة الإلحاد والانحرافات الفكرية ـ الشيخ عبد الرحمن السعدي نموذجًا	١٥
المقدمة الثالثة: الاستدلال العقلي على مسائل التوحيد وعلاقته بعلم الكلام	٣٤
المقدمة الرابعة: دراسة مختصرة حول رسالة «البراهين العقلية» وعملي فيها	٥١
صورة المخطوط	٥٥
مقدمة المؤلف	٦١
البرهان الأول: بُرهان الخَلق والحدوث	٦٤
البرهان الثاني: برهان الإتقان والعناية	٧٧
رحمة الله العامة	٨٣
من الأدلة: افتقار المضطرين إلى رحمة رب العالمين	٨٤
إجابة الله تعالى للدعوات	٨٧
البرهان الثالث: آيات الأنبياء	٩١
محاسن الشريعة	٩٥
البرهان الرابع: الفطرة	٩٦
الثواب المعجل للمحسنين والعقاب المعجل للظالمين	٩٩
فصلٌ تابع لما قبله	١٠١

الموضُوع	الصَّفحة

فصلٌ ١١٥
كمالات الأنبياء عليهم السلام ١١٩
التحدّي بالقرآن ١٢٨
الآثار الجليلة المترتبة على رسالة محمد ﷺ ١٢٩
من محاسن الشريعة ١٣٢
صدق الرسل عليهم السلام ١٤٣
فصلٌ ١٤٣
فصلٌ ١٤٩
والحاصل ١٥٧
قائمة المراجع ١٦١
فهرس الموضوعات ١٦٩